شخصية المرأة المسلمة

100
خصلة لتكوين شخصية متميزة

الدكتور
فهد خليل زايد



شخصية المرأة المسلمة

100
خصلة لتكوين شخصية متميزة

١٤٣٠هـ-٢٠١٠م

الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠٠٩/٤/٢١٠٣



العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس

ص.ب ٩٢٧٥١١ عمان ١١١٩٠ الأردن

هاتف: ٥٦٩٣٩٤٠ ٠٠٩٦٦٢٦

فاكس: ٥٦٩٣٩٤١ ٠٠٩٦٦٢٦

Email: ALNAFAES@HOTMAIL.COM

www.al-nafaes.com

شخصية المرأة المسلمة

100 خصلة لتكوين شخصية متميزة

الدكتور
فهد خليل زايد



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله حمد الشاكرين والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ أسعد الخلق وأكمل خلق الله سبحانه وعلى آله وصحبه وسلم.

حدثني الكثير من الناس، وطلب مني بعضهم الكتابة عن المرأة التي نريدها في هذا العصر، ولأن للمرأة مكانة عظيمة في المجتمع فهي الأم والأخت والابنة والزوجة، شرعت في الكتابة متوكلاً على الله طالباً منه العون والسداد والفتح، فالفضل والأمر منه وحده بعدما رأيت الحاجة ماسة لمن يطرق الباب، فلعل تتبعني كتابات أكثر عمقاً وأروع أسلوباً وأغزر مادة.

لم يقتصر فضل الإسلام على المرأة بنقلها النقلة الهائلة من وهدة التخلّف والذل والضياع إلى علياء التقدّم والعزة والأمن والكفاية، بل عُني عناية بالغة أيضاً بتكوين شخصيتها تكويناً كاملاً شاملاً، كل جانب من جوانب شخصيتها الفردية والأسرية والاجتماعية بحيث غدت إنساناً راقياً جديراً بالاستخلاف في الأرض.

ولأن العصر الحديث امتزجت فيه الثقافات وأصبح قرية صغيرة، وفرضت علينا ثقافات غريبة دخيلة، وقعت بعضهن فريسة لهذا التقدّم المزعوم الذي يحرض على الإفساد التام للمرأة، وذلك بعريها وإطلاق الحرية غير المسؤولة لها، تصاحب من تشاء، وتتأخر وقت تشاء دون سائل أو مسؤول.

إن المرأة المسلمة هي المرأة الوحيدة المهيأة لإشاعة الأمن والمحبة والسلام والطمأنينة في دنيا المرأة المعاصرة المتعبة المكدودة المرهقة من لُغُوب الفلسفة المادية، وتغيير الحياة الجاهلية التي عمت المجتمعات الشاردة عن هدي الله سبحانه، وذلك بمعرفتها نفسها وإقبالها على مكوناتها الذاتية، وصياغة شخصيتها الصياغة الأصيلة التي ارتضاها لها الله ورسوله الكريم، وميّزها بها على نساء العالمين.

ولتجلية ذلك كله، رحت أجمع النصوص الصحيحة من كتاب الله وسنّة رسوله الناطقة بتكوين شخصية المرأة، وأصنفها بحسب موضوعاتها، فانتظم إليّ 100 خصلة تبحث في شؤون المرأة، وتكوين شخصيتها المتميزة في عصرنا الحالي.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يقبل عملي هذا، ويجعله نوراً لي في حياتي، وزاداً بعد مماتي، وشفيعاً لي يوم الحساب، وأن يلهمني فيه الصواب والسداد والرشاد، ويجنبني كبوة الفكر، وضلال القصد، وجموح القلم وشطط القول ووهن الحجة وفضول الكلام.

وأرجو من القارئ الكريم - ذكراً كان أم أنثى - أن يدعو لي بظهر الغيب لنيل الشهادة في سبيل الله ونصر الإسلام والمسلمين في كل مكان على وجه هذه البسيطة، والحمد لله رب العالمين.

د. فهد خليل زايد.

المـرأة المسلمـة

المرأة المسلمة بحكم تكليفها كالرجل، هي صاحبة رسالة في الحياة، ولذا وجب أن تكون اجتماعية فعالة مؤثرة، تخالط النساء على قدر استطاعتها، تعاملهن بخلق الإسلام الرفيع الذي يميّزها عن غيرها من النساء.

وحيثما وجدت المرأة المسلمة الواعية التقيّة كانت منار إشعاع، ومشكاة هداية، ومصدر توجيه، وعامل بناء وتسديد وتوعية، بأقوالها وأفعالها على السواء.

إن المرأة المسلمة الواعية أحكام دينها، تبرز في كل مجتمع نسائي توجد فيه مجسدة قيم دينها الحق، وشمائله الحسان، بتطبيقها العملي لهذه القيم، وتحلّيها بتلك الشمائل، فقوام شخصيتها الاجتماعية المتميّزة رصيد ضخم من تلك القيم الإسلامية في سلوكها الاجتماعي ومعاملتها للناس، فمن هذا النبع تأخذ المسلمة أعرافها وعاداتها وسلوكياتها ومعاملاتها، ومن هذا المعين الصافي والمورد العذب، تنهل المرأة المسلمة لتزكية نفسها وتكوين شخصيتها الاجتماعية المسلمة.

1

تجل الكبير وصاحبة الفضل

من أبرز هذه الخصائل أو القواعد الأخلاقية، إجلال الكبير وتقديره، وإعطاء ذي الفضل حقه من الاحترام والتوقير.

والمرأة المسلمة النابهة لا يفوتها الأخذ بهذه القواعد والأصول الإسلامية التي تعطي المسلمة هويتها الأصيلة في المجتمع الإسلامي، ومن فقدتها انسلخت عن عضوية هذا المجتمع، وجُرِّدت من شرف الانتساب لأمة الإسلام، كما قرر ذلك رسول الله ﷺ : «ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه» رواه أحمد والطبراني بإسناد حسن.

ذلك أن احترام السيدات الكبيرات في سنهن أو مقامهن، وتقديمهن على من هن أصغر سناً منهن، دليل على رقي المجتمع، وعلى أخذ أعضائه بتوجيهات الإسلام، والسير بحسب آدابه الاجتماعية، وعلامة على سمو نفوس أعضاء ذلك المجتمع وتهذيبها، سواء أكانوا رجالاً أم نساءً.

ولهذا كان الرسول ﷺ يحرص على تعميق هذا المعنى في نفوس المسلمات، وهو يرفع قواعد المجتمع الإسلامي ويرسم دعائم الأخلاق فيه.

ومن شواهد حرصه على هذا المعنى، قوله لعبدالرحمن بن سهل إذ رآه يتكلم وكان أصغر القوم في الوفد الماثل بين يدي الرسول ﷺ «كبِّر، كبِّر»، فسكت عبدالرحمن، وتكلم من هو أكبر منه. متفق عليه.

والمرأة المسلمة المعاصرة إذ تجل السيدة الكبيرة المسنة، وتكرّم صاحبة الفضل، إنما تقوم بعمل أخلاقي جليل، وتؤدي بعملها هذا عبادة، لأن إجلال

الكبار وأصحاب الفضل من إجلال الله تعالى، كما قال رسول الله ﷺ: «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشَّيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط».

وإنها لتنفذ بعملها الاجتماعي هذا أمر الرسول ﷺ بإنزال الناس منازلهم في المجتمع الإسلامي، وقد ذكر هذا الإمام مسلم في أول صحيحه، فقال: وذكر عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم» [صحيح مسلم 1/ 55].

ولا يغيب عن فطنة المرأة المسلمة النابهة أن إنزال الناس منازلهم يعني معرفة أقدارهم وتقديمهم، فيُقَدَّم الكبار والعلماء وحملة القرآن وأصحاب العقول وأهل الفضل، سواء أكانوا من الرجال أم من النساء.

2

لا تنقل بصرها في بيت غيرها

إنها لا تُحد نظرها في بيت غيرها منقِّبة، متفحصة محتوياته، فهذا ليس من الخلق الحميد الملائم للمسلمة، بل إنه خلق مستهجن، وقد توعد الرسول ﷺ أصحاب العيون المتنقلة في المجالس، المنقِّبة عن عوراتها وثغراتها، وأحلّ فقء عيونهم إذ قال: «من اطلع في بيت قومٍ بغير إذنهم، فقد حلَّ لهم أن يفقؤوا عينه» [صحيح مسلم].

3

تتجنب التثاؤب في المجلس ما استطاعت

إنها لا تتثاءب في مجلسها ما استطاعت، إذا ما دهمها التثاؤب وغلبها على أمرها حاولت دفعه ما أمكنها ذلك، وهذا ما أرشد الرسول الكريم إليه بقوله: «إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع» [صحيح مسلم 18/ 123].

أما إذا كان التثاؤب أقوى من أن يُكظم أو يدفع، فلتضع يدها على فمها، وبهذا أمر الرسول الكريم بقوله: «إذا تثاءب أحدكم فليمسك بيده على فيه، فإنّ الشيطان يدخل» [صحيح مسلم 18/ 122].

إن التثاؤب قبيح منفِّر، لا يليق بالإنسان المهذب، ومن هنا لا بد من دفعه أو تحاشيه بستر الفم الفاغر المتثائب باليد، وحجب منظره عن الجالسين. بذلك جاء الهدي النبوي الكريم معلماً المسلمين والمسلمات التصرّف الاجتماعي اللبق الذي لا ينفِّر الجالسين والجالسات، ولا يشعرهم بملل الشخص المتثائب في مجالستهم، ورغبته في انصرافه عنهم أو انصرافهم عنه، وهذا ما تفعله المرأة المسلمة المتأدبة بأدب الإسلام.

4

تأخذ بأدب الإسلام عند العطاس

إن الذي وضع آداباً للتثاؤب وضع آداباً للعطاس، فعلّم المسلمين والمسلمات ما يفعلون إذا دهمهم العطاس، وما يقولون، وما يقال لهم على سبيل الدعاء (التشميت).

فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب، فإذا عطس أحدكم، وحمد الله تعالى، كان حقاً على كل مسلم سمعه أن يقول له: يرحمك الله. وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليردّه ما استطاع، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان» [فتح الباري 10/ 611].

إن هذا الحادث البسيط لا يمر في حياة الإنسان المسلم دون أن يكون له ضوابط وقواعد وآداب، تجعل المسلمات والمسلمين يحسون في أعماقهم أن هذا الدين جاء لصلاح أمرهم كله، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا نظمها، ووضع لها الصيغ الخاصة بها التي تربط الإنسان المسلم دوماً بالله رب العالمين

فإذا ما عطست المرأة المسلمة فعليها أن تقول: الحمد لله، وعلى من سمعها أن يقول: يرحمك الله، وعليها أن تجيب على ذلك بدعاء: يهديكم الله ويصلح بالكم، وهذا ما أرشد إليه حديث رسول الله ﷺ الذي رواه البخاري: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم» [فتح الباري 10/ 608].

وصيغة هذا الدعاء: «يرحمك الله» تسمى التشميت، وتقال للعاطس على سبيل الاستحباب إذا حمد الله تعالى، فإن لم يحمد الله فلا يُشمت، وفي ذلك يقول النبي ﷺ : «إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه، فإن لم يحمد الله فلا تشمتوه» [صحيح مسلم 18/ 121].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «عطس رجلان عند النبي ﷺ فشمَّت أحدهما، ولم يشمّت الآخر، فقال الذي لم يشمِّته: عطس فلان فشمَّته وعطستُ فلم تشمتني؟ فقال: هذا حمد الله، وإنك لم تحمد الله» [متفق عليه، رياض الصالحين 98].

والغرض كبير من ذكر الله وحمده، ذلك لأنه يعزز وشائج الإخاء والمودة والتصافي بين المسلمين والمسلمات، فالإنسان العاطس يحمد الله على تفريج ما اعتمل في رأسه من تفاعلات وتهيجات، والسامع يدعو له بالرحمة إذا سمعه يحمد الله، وحامد الله يستحق رحمة الله، فيقابل العاطس دعاء مشمته بدعاء أطول وأشمل، يفيض بمعاني الخير والمحبة والود.

كما أن العلم الحديث أثبت أن الإنسان عندما يعطس يتوقف القلب لحظة العطس ثم يعود للعمل، فالحمد لله أن أعاد القلب للعمل، وعادت له الحياة من جديد بفضل الله.

الإسلام يوجه الحوادث العفوية العابرة في حياة المسلمين والمسلمات ليتخذ منها مناسبات تذكرهم بربهم، وتطلق ألسنتهم بحمده، وتعزز في نفوسهم الأخوة والمودة والتراحم.

ومن أدب العطس والعطاس أن يضع الإنسان يده على فمه، ويخفض صوته ما استطاع، وهذا ما كان يفعله الرسول الكريم حين العطاس.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه، وخفض - أو غض - بها صوته» [متفق عليه، رياض الصالحين: 448].

والمرأة المسلمة لا تنسى في مثل هذه الحالات التي تفاجئ الإنسان أن تتصرف التصرف الذي رسمه رسول الله ﷺ للمسلمين والمسلمات، وتحفظ الصيغ المأثورة عن الرسول الكريم بنصها.

5

لا تتطلع إلى طلاق غيرها لتحل محلها

في هذا المجتمع الذي تعيش فيه المرأة المسلمة يحرم الغش والغدر، وغير ذلك من الأخلاق الوضيعة المستفحلة في مجتمعات البشر التي لا تهتدي بهدي الله عز وجل.

ومن أبشع هذه الأخلاق تطّلع المرأة إلى الرجل المتزوج، بغية خطفه من زوجته بعد تطليقها، ليفرغ للمرأة الخاطفة، ويعود خيره كله عليها وحدها. والمرأة المسلمة الواعية بعيدة كل البُعد عن هذه الخليقة السيئة الوضيعة التي نهى الرسول الكريم ﷺ في سياق نهيه عن عدد من مثيلاتها من الأخلاق والعادات القبيحة. وذلك في الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «لا تناجشوا، ولا يبع المرء على بيع أخيه، ولا يبيع حاضر لبادٍ، ولا يخطب المرء على خطبة أخيه، ولا تسأل المرأة طلاق الأخرى لتكتفئ ما في إنائها» [فتح الباري، 4/ 352].

وفي رواية للبخاري عن أبي هريرة أيضاً: «لا يحل لامرأة تسأل طلاق أختها لتستفرغ صحفتها فإنما لها ما قدّر لها» [فتح الباري، 9/ 219].

ذلك أن المسلمة أخت المسلمة، وهي مؤمنة بأن ما قدره الله لها لا بد أن يصيبها، وأنها لا تكون مؤمنة بحق إلا أن تحب لأختها ما تحبه لنفسها، كما قرر رسول الله ﷺ بقوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [متفق عليه].

ومن هنا كان لها من وعيها وإيمانها ما يعصمها عن الوقوع في شرك هذه الخطيئة، والتلوث في حمأة هذا الإثم، وهي إذ تعصم نفسها في الوقوع في هذا

المنزلق البشع، إنما تفعل ذلك طاعة لله ولرسوله واستجابة لأمرهما، ونزولاً عند القيم الإنسانية الرفيعة التي طبع الإسلام بها شخصيتها، وليس تحرزاً من الفضيحة الاجتماعية التي تلحق المرأة من جراء تلك الفعلة الشنيعة، فقد تستطيع المرأة أن تخفي فعلتها وتدبيرها، وتنجو من المأخذ الاجتماعي، ولكنها لا تستطيع أن تفلت من يدي رب العزة الذي يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

6

تختار العمل المناسب لأنوثتها

لقد رفع الإسلام عن كاهل المرأة المسلمة عبء العمل لتنفق على نفسها، وكلّف أباها أو أخاها أو زوجها أو أحد أقاربها بالإنفاق عليها، ولهذا لا تتطلع المرأة المسلمة الواعية إلى العمل خارج بيتها إلا إذا كانت بحاجة إلى الكسب إذ لا معيل لها يضمن لها العيش الحر الكريم، أو كان مجتمعها بحاجة إليها لتقوم بعمل تخصصت فيه يلائم أنوثتها، ويحفظ كرامتها، ويصون دينها وأخلاقها.

ذلك أن الإسلام كلّف الرجل بالإنفاق على الأسرة، وحمَّله مسؤولية العيش وتكاليفه، لتتفرغ المرأة للحياة الزوجية والأمومة.

هذه نظرة الإسلام للمرأة والأسرة، وهذه هي فلسفة الحياة الأسرية والزوجية، وعلى النقيض من ذلك تقوم فلسفة الغرب في شأن المرأة والبيت والأسرة والأولاد، فالبنت متى بلغت سناً معينة، وهي في الغالب سبع عشرة سنة، لا يُلزم أبوها أو أخوها أو أحد أقاربها الإنفاق عليها، بل عليها أن تفتش عن عمل لتنفق على نفسها، وتدّخر منه ما تقدمه لزوجها المرتقب، فإذا تزوجت كان عليها أن تشارك زوجها في نفقة البيت والأولاد، فإذا شاخت، وكانت لا تزال قادرة على الكسب، وجب عليها أن تستمر في العمل لكسب قوتها، ولو كان لديها أولاد أغنياء.

ولا ريب أن المرأة المسلمة تدرك الفرق الواسع بين حال المرأة المسلمة وحال المرأة في الغرب، ففي الأولى تكريم المرأة وصونها وضمان معيشتها الكريمة، وفي الثانية إجهاد وإرهاق وامتهان للمرأة، وبخاصة عندما تبلغ سن الشيخوخة.

ولقد تتابعت شكوى المفكرين الغربيين مما آلت إليه حالة المرأة الغربية من سوء، منذ أواخر القرن الماضي، راحوا ينذرون أقوامهم بانهيار حضارة الغرب، إذا ما استمرت الأخطاء الناشئة عن خروج المرأة من بيتها وتفكك الأسرة، وتشرد الأولاد.

تقول الكاتبة الإنجليزية (آني رورد): «لأن تشتغل بناتها في البيوت خوادم، خير وأخف بلاء من اشتغالهن في المعامل، حيث تصبح البنت ملوثة بأدرانٍ، تذهب برونق حياتها إلى الأبد، ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين، فيها الحشمة والعفاف والطهارة، الخادمة والرقيق يتنعمان بأرغد عيش، ويعاملان كما يعامل أولاد البيت، ولا تمس الأعراض بسوء، نعم إنه لعار على بلاد الإنكليز أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطة الرجال، فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية من القيام في البيت، وترك أعمال الرجال للرجال، سلامة لشرفها».

إن المرأة الغربية لتغبط المرأة المسلمة، وتتمنى أن تحظى ببعض ما تحظى به المرأة المسلمة من حقوق وتكريم وصون، وضمان واستقرار.

لا ريب أن المرأة المسلمة الواعية قد عرفت طريقها، وعرفت موطئ قدمها، بعد أن رأت الفرق الكبير بين حكم الله وحكم الجاهلية، فاختارت حكم الله غير عابئة ولا ملتفتة لصيحات الجاهلية الرعناء المنبثقة بين الحين والحين، من هنا ومن هناك.

قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:50].

7

لا تتشبه بالرجال

لأنها تعلم أن تشبه المرأة بالرجال وتشبّه الرجال بالمرأة حرام في شرعة الإسلام، ذلك أن حكمة الله وسنته الخالدة في الكون والحياة والإنسان قضت أن للرجل شخصيته المتميّزة عن المرأة، وللمرأة شخصيتها المتميّزة عن الرجل، وهذا التميّز ضروري لكل من الجنسين، لأن كلاً منهما له دوره المتميّز عن الآخر في الحياة، وهذا التميّز بوظيفة الجنس الأساسية ومهمته في الحياة، مرتبط كل الارتباط بتميز شخصية الإنسان، أي بتميّز شخصية الرجل عن المرأة، وتميّز شخصية المرأة عن الرجل.

وضع الإسلام الأمور في نصابها حين حدد لكل من الرجل والمرأة مهمة في الحياة، ويسّره لما خلق له، ومن هنا كان أي خروج عن هذا التحديد الرباني خروجاً عن سنن الفطرة التي فطر الله الناس عليه، وتزويراً لطبيعة الإنسان وانحرافاً بها عن الأصالة الخلقية الثابتة، وهذا ما يمقته كلا الجنسين وليس أدل على ذلك من أن المرأة تكره الرجل المخنث المتهالك المتشبّه بالنساء، والرجل يكره المرأة الخشنة المسترجلة المتشبهة بالرجال.

وعمارة الكون وسعادة البشرية لا يتمان على الوجه الصحيح إلا بتميّز كل من الجنسين، واستمتاع كل منهما بميزات الجنس الآخر، وتعاونهما معاً على إعمار الكون وإسعاد البشرية.

فعن ابن عباس ﷺ قال: «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال» [فتح الباري 10/ 332].

وعن ابن عباس ﷺ قال: «لعن النبي ﷺ المخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء، وقال: أخرجوهم من بيوتكم، قال: فأخرج النبي ﷺ فلاناً، وأخرج عمر فلانة» [فتح الباري 10/ 333].

ويوم كان المسلمون في عافية يحكّمون شريعة الله، وتستضيء مجتمعاتهم بنور الإسلام ما كان هناك أثر لمشكلة تشبه النساء بالرجال، وتشبه الرجال بالنساء أما اليوم، وبعد أن انحسر ظل الإسلام عن المسلمين، وخبا نوره في مجتمعاتهم أصبحنا نجد في كثير من تلك المجتمعات فتيات يلبسن البنطالات الضيقة المجسمة، والقمصان المشتركة بين الرجال والنساء، وقد كشفن رؤوسهن، وحسرن عن سواعدهن، حتى غدون كالشبان من الرجال، كما نجد نفراً من الشباب المخنث المائع، قد علّق في عنقه سلسلة من ذهب، تدلت عن صدره المكشوف، وقد أطال شعره ورَجَّله، وجدله، وربطه كالنساء تماماً، وضع الحلق في أذنه وأنفه حتى غدا كفتاة يصعب التمييز بينهما.

إن هذه المشاهد المزرية في بلاد المسلمين التي منيت بالغزو الفكري والثقافي، وأُصيبت كثير من شبابها بالهزيمة الروحية، لهي مشاهد دخيلة على الأمة الإسلامية ومجتمعاتها وقيمها وأعرافها الإسلامية، وفدت إليها من الغرب الفاجر والشرق الكافر على السواء، حيث انتشرت موجات الهِبِّيّة والعبثية والعدمية وزاغت البشرية، وشقيت شقاءً كبيراً، إذ جرفتها عن فطرتها السليمة إلى الانحرافات والشذوذ، وعادت على تلك الشعوب بأوخم العواقب وأخطر الأمراض.

وقد أصابنا من هذا كله شواظ ودخان، عمّ حياة الشاردين عن هدي الله في بعض بلاد المسلمين، وبعد انفراط عقد الخلافة الإسلامية، وتمزق وحدة الأمة، واهتزاز كثير من قيمها في بعض مجتمعات المسلمين، فبدا هؤلاء الشاذون والشاذات غرباء عن جسم الأمة الإسلامية، خارجين عن نهجها الأصيل، وقيمها الثابتة، وشخصيتها المميّزة.

8
تدعو إلى الحق

تدرك المرأة المسلمة الواعية أن الإنسان لم يخلق في هذه الدنيا عبثاً، وإنما خلق ليؤدي رسالة، ويحمل أمانة ويقوم بفريضة، وهي عبادة الله عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:56].

وعبادة الله تتمثل في كل حركة من حركات الإنسان الإيجابية البناءة، لإعمار الكون، وتحقيق كلمة الله في الأرض، وتطبيق منهجه في الحياة، وهذا كله من الحق الذي يجب على المسلمين والمسلمات أن يدعوا الناس إليه.

ومن هنا تحسّ المرأة المسلمة الصادقة بواجبها في دعوة من تستطيع من النساء إلى الحق الذي آمنت به، متوخيّة بذلك الثواب الجزيل الذي وعد الله به الدعاة إلى الله، كما جاء في حديث النبي ﷺ لعلي ﷺ: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم» [فتح الباري: 7/ 476].

إن كلمة طيبة تلقيها المرأة المسلمة في مجتمع من النساء غافل، أو في أذن امرأة شاردة عن هدي الله، فتفعل فعلها في النفوس، تعود على الفتاة الداعية بثواب جزيل عظيم، يفوق حمر النعم، أنفس الأموال التي كان يتطلع إليها العرب آنذاك، ويضاف إلى هذا الثواب مثل أجر المرأة التي اهتدت على يدها، كما أخبر بذلك الرسول الكريم ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً» [صحيح مسلم 16/ 227].

ولا تستبضع المرأة المسلمة بضاعتها من العلم حين تدعو النساء إلى الله، فحسبها أن تبلغ ما حصّلته من العلم، أو ما وصل إلى سمعها من الموعظة

والهداية، ولو كان آية واحدة من كتاب الله، وهذا ما أوصى به النبي ﷺ أصحابه: «بلغوا عني ولو آية» [فتح الباري 6/ 496].

فقد تصادف هذه الآية، أو الكلمة من كلمات الداعية، مكمناً من مكامن الإيمان، فإذا الهداية تنقدح في نفس المرأة السامعة، فتقبل على الحق، وتستضيء حياتها عليها بنوره الوهاج.

ومن هنا لا تألو المرأة المسلمة الداعية جهداً من دعوة النساء إلى الحق، وما أحوجهن في هذا العصر إلى الدعوة إليه، مبتغية وجه الله، مشيعة الوعي في صفوف النساء اللواتي لم يكتب لهن اكتساب الوعي والثقافة والتوجيه، مقدّمة الدليل على أنها المؤمنة التي تحب لأختها ما تحب لنفسها، وهذه هي أخلاق الداعية المتميّزة عن النساء العاديات، وإنها لأخلاق عالية سامية، نوه بها رسول الله ﷺ وأثنى عليها ودعا لها بقوله: «نضّر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه، فرب مُبَلَّغ أوعى من سامع» [رواه الترمذي 5/ 32 في كتاب العلم].

إن المرأة المسلمة كالمصباح المنير الذي يضيء الطريق للسالكات في الليلة الحالكة السواد، ولا يمكن أن تحجب نورها عن أخواتها المتخبطات في عتمة الليل البهيم، بعد أن رأت الثواب العظيم الذي أعده الله للداعيات المخلصات الصادقات.

9

تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر

لا يقتصر واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الرجل وإنما يشمل الرجل والمرأة على السواء، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:71].

لقد أعطى الإسلام المرأة مكانة اجتماعية عالية إذ كلفها بهذا الواجب الاجتماعي العظيم، واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ جعلها لأول مرة في التاريخ آمرة، وما كانت تُعرَف في غير دنيا الإسلام إلا مأمورة.

وإزاء هذا التكليف الذي هو في حقيقته تشريف، تنهض المرأة المسلمة بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحدود والأوساط التي تلائم أنوثتها، وتدخل في نطاق مجالها وتخصصها، فتتصدى للمنكر، وهو غير قليل في دنيا النساء، إن رأته، تنهى عنه بعقل وروية وحكمة، وحسن تأنٍّ، فتزيله بيدها إن استطاعت ولم يترتب على إزالته فتنة أشد، فإن لم تستطع إزالته بيدها بيّنت وجه الحق بلسانها وبيانها، فإن لم تستطع، أنكرت الباطل بقلبها، وراحت تفكر بالوسائل والأسباب المؤدية إلى إزالته واستئصاله من جذوره، هذا الأسلوب في إزالة المنكر هو الذي أمر به الرسول ﷺ بقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» [صحيح مسلم 2/ 22].

والمرأة المسلمة تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما تكون ناصحة لأخواتها المسلمات المقصرات في اتباع هدي الإسلام الحنيف، والدين نصيحة كما قرر رسول الله ﷺ ، في إيجاز شديد إذ أخبر عن الدين كله بكلمة واحدة هي النصيحة، وإذا كان الدين النصيحة، فلا بد من القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتتحقق النصيحة التي ذكرها الرسول ﷺ .

إن جهر المرأة المسلمة بالنصيحة وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأوساط النسائية سيؤديان إلى تقويم كثير من الأمور والأوضاع السائدة عند بعض النساء والقائمة على التقليد والعادة والاستمرار على مخالفتها لهدي الإسلام وحكمه وما أكثرها في أوساط النساء الغافلات الشاردات، والمرأة المسلمة إذ تتصدى لتقويم هذه العادات، وتبيان رأي الإسلام فيها، تسدي لمجتمعها وأمتها خير عمل، وتكون من خيار الناس.

قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله أيّ الناس خير؟ قال: «خير الناس أقرؤهم وأتقاهم، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم». [رواه أحمد والطبراني].

هكذا تكون المرأة المسلمة صاحبة قضية، لا تسكت عن باطل، ولا تقعد عن تبيان الحق، ولا ترضى بالانحراف، إنها تعمل دوماً على نفع المسلمات وانتشالهن مما هن فيه من تقصير وتخلّف وانحراف، وهي تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، امتثالاً لأمر الله ورسوله.

10

لبقة حكيمة في دعوتها

المرأة المسلمة لبقة كيسة فطنة، حكيمة في مخاطبتها للنساء، مقدرة مستواهن الفكري والاجتماعي، تحسن الدخول إلى القلوب والعقول بحكمتها وحسن موعظتها كما أوصى القرآن الكريم: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ [النحل:125].

وتحذر المسلمة من الإطالة والإملال والإثقال على المستمعات، فلا تطيل في حديثها، ولا تضمنه المسائل الصعبة العسيرة الفهم، وإنما تقدم لهن الفكرة التي تريد إبلاغها بإيجاز واضح غير مخل، وبأسلوب مشوق غير ممل، وعلى دفعات، بحيث تستوعب المدعوة الفكرة المعروضة وتتمثلها بيسر ورضا وتشوق، هذا ما كان رسول الله ﷺ يفعله حينما يعظ الناس، فقد كان عبدالله ابن مسعود يتعهد الناس بالموعظة كل يوم خميس، فقال له رجل: يا أبا عبدالرحمن: لَوَدِدت أنك ذكَّرتنا كل يوم، فقال: «أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُمِلّكم، وإني أتخوّلكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا» [متفق عليه، رياض الصالحين: 375].

ومن ألزم مستلزمات المرأة المسلمة الحكمية، أن تترفق بمن تدعوهن فتصبر على قصور فَهْم بعضهن، وعلى جهلهن بكثير من قضايا الدين، وعلى أخطائهن المتكررة، وعلى أسئلتهن المملة الكثيرة، متأسية في ذلك كله بسيد الدعاة رسول الله ﷺ الذي كان آية في الصبر والحلم واللطف وسعة الصدر، والإقبال على السائلين إقبال المرشد المحب المؤنس، والإنسان المصلح لا يضيق

ذرعاً ببطء فهمهم، ولا يمل من كثرة أسئلتهم، ولا من تكرار إجابته، حتى يفهموها، وينصرفوا فاهمين راضين.

ومن أخلاق المسلمة الحكيمة أسلوبها المؤثر الجذاب، إنها لا تجابه المسيئات بإساءاتهن، ولا المقصرات بتقصيرهن، بل تتلطف وتحسن التأني في مخاطبتهن، ملمحة غير مصرحة، طالبة منهم بلباقة وحكمة أن يتخلصن مما هن فيه من إساءة أو تقصير، وذلك حرصاً على مشاعرهن أن تخدش، وعلى نفوسهن أن تنفر من الدعوة إلى الله، وهذا الأسلوب اللين الحكيم أوقع في النفوس وأكثر تأثيراً في القلوب، وأنجح في مداواة العلل والأمراض النفسية والاجتماعية، وهو الأسلوب الذي كان يتبعه رسول الله ﷺ في وعظه.

ومن صفات المسلمة الحكيمة الإبانة والوضوح والتكرار غير الممل، بحيث يغلب على الظن أن المخاطبات قد استوعبن الكلام الذي سمعنه وتغلغل في قلوبهن، وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ كما يقول أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً، حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلّم عليهم سلّم عليهم ثلاثاً» [فتح الباري: 1/ 188].

11

تعاشر النساء الصالحات

تتحرى في علاقاتها بالنساء اختيار الصالحات منهن، ليكن لها صديقات تأنس بصداقتهن، وتتعاون معهن على البر والتقوى والعمل الصالح، وذلك أن معاشرة الصالحات من النساء ومجالستهن، تنضح دوماً بالخير والنفع والثواب العميم، وتزيد النسوة في مجتمعاتهن سداداً في الرأي وتفقهاً في الدين، وإقبالاً على الحق، ولذا جاء الحض عليها في الهدي القرآني، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:28].

والمرأة المسلمة لا تجد غضاضة في معاشرة الصالحات من النساء ولو كن في الظاهر دون مستواها الاجتماعي أو المادي، فالعبرة بجوهر الشخصية، لا بمظهرها وشكلها وثرائها، ولا يغيب عن بال المرأة المسلمة، وهي تختار صديقاتها من صالحات النساء، أن الناس كالمعادن منها النفيس ومنها الخسيس، وكذلك الناس، وإنها لتعلم من هدي دينها أن الجليسات صنفان: جليسة صالحة وجليسة سوء، فالجليسة الصالحة كحاملة المسك، تهب جليستها الشذى والطيب، وجليسة سوء كنافخ الكير، لا تجلب لجليستها إلا الشواظ والدخان والكآبة.

ومن هنا كان الصحابة الكرام يحرصون على زيارة أهل الخير من الصالحين والصالحات الذين يذكرون بالله واليوم الآخر، ويرفقون بالقلوب، ويستدرون الدموع والاعتبار من المآقي.

إن مجالس الصالحات من النساء التي يُذكر فيها الله، وتدور الأحاديث النافعة الجادة، تحفّها الملائكة، ويظلها الله سبحانه برحمته، وبمثل هذه المجالس تزكو النفوس، وتنجلي العقول، وتصقل الأرواح، ويجنين النساء من هذه المجالس ثماراً يانعة، نفعاً وفائدة في الدنيا والآخرة.

12

تسعى بالصلح بين المسلمات

يتميز المجتمع المسلم بأنه المجتمع الذي تسوده الأخوة، وتعمره المودة، ويشيع فيه التواصل والتسامح والصفاء.

على أن هذا المجتمع على فضله وتميّزه، يبقى مجتمعاً بشرياً، لا يخلو في بعض الأحيان من المنازعات والمشاحنات، تدب بين بعض أفراده فيكون التخاصم والمقاطعة.

بيد أن هذه المنازعات التي تحدث في المجتمع الإسلامي لا تلبث أن تزول، بما يتلقى أفراد هذا المجتمع من هدي سماوي محكم، يؤصل الأخوة والمودة والتقارب، ويجتث شأفة الكراهية والعداء والتقاطع، وبفضل المساعي الخيرة التي يحض الإسلام أبناءه على القيام بها للصلح بين المسلمين والمسلمات، كلما ذر قرن الفتنة بين الأخلاء، ونزغ الشيطان بين الأخوة، وحدث فيهم تقاطع وخصام، ولقد رأينا فيما سبق أن الإسلام حرّم على المسلمين المتنازعين أن يتقاطعا أكثر من ثلاثة أيام.

وأمر المسلمين والمسلمات أن يصلحوا بين الطائفتين المتنازعتين، قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات:9].

ذلك أن مجتمع المؤمنين والمؤمنات ينبغي أن يسوده العدل والحب الوئام، وترفّ فيه الأخوة بنداها العطر.

ومن هنا كانت المرأة مطالبة بالإصلاح بين الأخوات المتنازعات المتخاصمات عملاً بهدي الإسلام الحنيف، وقد رخص الإسلام لها أن تتزّيد في أقوالها ابتغاء استمالة النفوس المتخاصمة المتنافرة، وتليين القلوب المتصلبة، المتحجرة، ولم يعدّ هذا الترخص من الكذب الحرام الآثم قائله، ويجد هذا في حديث: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً» [متفق عليه، رياض الصالحين: 687].

وفي رواية أخرى لمسلم زادت «ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها» [صحيح مسلم 16/ 157].

13

تخالط النساء وتصبر على أذاهن

المرأة المسلمة الصادقة حاملة الرسالة وصاحبة القضية، ومن تصدى لهذه المهمات الجسام فعليه أن يوطن نفسه على الصبر والثبات والتضحية في سبيلها.

لا بد للمرأة المسلمة من الصبر على مواقف بعض النساء وردود أفعالهن الفجة، وسوء تقديرهن لمهمتها النبيلة، وسخرية بعضهن من الإسلام، ودعوتهم من الالتزام بآداب الإسلام وأحكامه، لكن سطحية تفكيرهن وعبث آرائهن، وبطء استجابتهن إلى الحق، ودورانهن حول ذواتهن ومصالحهن، وانصرافهن إلى الدنيا وما فيها من لهو ولعب، دون حساب للآخرة ولا وقوف عند أوامر الدين، إلى غير ذلك مما قد يبدو من البشر من تفاهات، تضيق لها صدور النساء، فإذا أنفسهن تحدثن في لحظات الضيق والسأم والإعياء بالاعتزال والانزواء وترك العمل في سبيل الله، هذا ما يواجهه الدعاة من رجال ونساء في كل زمان ومكان، لهذا كان الرسول ﷺ يشدّ من عزمات الدعاة العاملين، ويربط على قلوبهم، ويثبت منهم الأقدام، فيعلن أن الصابرين والصابرات في درب الدعوة الشائك الطويل خير من الذين لا يصبرون في ميزان التقوى والعمل الصالح: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» [أخرجه البخاري في الأدب المفرد 1/ 478].

كان رسول الله ﷺ والأنبياء من قبله آية في الصبر على رعونات الناس وتفاهاتهم، وما أحوج النساء إلى الوقوف عندها، كلما نفذ صبرهن، وضاقت صدورهن، بما يلقون من الناس من جحود وأذى وكفران.

ومن نماذج ذلك الصبر الكبير ما رواه الشيخان من أن النبي ﷺ قسم قسمة كبعض ما كان يقسم، فقال رجل من الأنصار: والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله عز وجل، وبلغت تلك المقالة الظالمة مسامع الرسول الكريم ﷺ فشق ذلك عليه، وتغير وجهه، وغضب، ثم قال: «قد أوذي موسى بأكثر من ذلك فصبر».

إنه خلق الأنبياء الصادقين وهو الصبر على الأذى من الناس وأقاويلهم وبدونه لا تستمر دعوة، ولا يثبت دعاة.

والمرأة المسلمة لا تنقصها اللباقة ولا يعوزها الذكاء في تقدير نفسيات المخاطبات ومستوياتهن الفكرية والاجتماعية، ومخاطبة كل صنف بالأسلوب الذي يناسبه ويجدي في جذبه والتأثير فيه.

14
تحب صديقاتها وتواخيهن في الله

تتميز صلات المرأة المسلمة الصادقة وعلاقاتها بصديقاتها عن غيرها من النساء في علاقتهن الاجتماعية وصلاتهن، إنها لتبني صلاتها وعلاقاتها بأخواتها على أساس من التآخي في الله، وهذا التآخي في الله أسمى رباط يربط بين الإنسان وأخيه، إنه رباط الإيمان بالله الذي عقده الله بين المؤمنين كافة بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:10].

وأخوة الإيمان أمتن روابط القلوب، وأوثق عرى النفوس، وأعلى صلات العقول والأرواح.

إن الأخوات المتآخيات في الله على صلة وثيقة دائمة وطيدة قائمة على الحب في الله، وهو الحب الأسمى والأطهر والأنقى في حياة البشر، إنه الحب المجرد من كل منفعة، البريء من أي غرض، النقي من كل شائبة، لأنه يستمد صفاءه وشفافيته ونقاءه من مشكاة الوحي وهدي النبوة، وهو الحب الطاهر الذي يجد فيه المسلمون والمسلمات حلاوة الإيمان.

قال رسول الله ﷺ : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» [متفق عليه، شرح السنة 1/ 49، كتاب الإيمان].

ولقد جاءت النصوص الصحيحة غزيرة متتابعة غنية تُعلي من شأن المتحابين في الله، وتصوّر منزلتهم العظيمة، ومقامهم الكريم والشرف الرفيع الذي يسبغه الله عليهم يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وحسب المتحابين والمتحابات في الله شرفاً وعزة ورفعة وتكريماً أن رب العزة يحفل بهم يوم يقوم الأشهاد فينادي: «أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أُظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» [صحيح مسلم 16/ 123].

فما أعظمه من شرف! وما أعزها من منزلة! وما أرفعه من تكريم! يلقاه المتحابون والمتحابات في الله يوم الهول والشدة والكرب العظيم.

ذلك أن الحب المجرد النظيف الخالص الذي يخفق به قلب الإنسان لأخيه الإنسان، لا يبتغي به إلا وجه الله، مرتقى عسير صعب، لا يبلغه إلا من صفت نفوسهم، وطهرت أرواحهم، وهانت عليهم الدنيا وما فيها من متاع فارتفعوا عن جواذب الحياة المادية وشهواتها ومتعها ومنافعها، وآثروا ما عند الله من نعيم مقيم ورضوان أكبر، فلا غرو أن يرفع الله هذا النمط الفذ من البشر إلى أعلى المراتب، ويعد لهم من المنزلة والنعيم ما يليق بسموهم وارتفاعهم وتجردهم لله عز وجل.

نجد ذلك في الحديث الذي رواه معاذ عن النبي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء» بل لا غرو أن يَحْبُوا الله هؤلاء العباد المكرمين ما هو أجل وأعظم وأسمى من تلك المنزلة وذلك النعيم، يحبوهم حبّه الغالي العزيز الذي تتقطع دونه أعناق البشر، وتنتهي عنده معسولات أمانيهم في الدنيا والآخرة.

لقد كان رسول الله ﷺ يدرك ما لهذا الحب الطاهر النقي من أثر كبير في تقوية المجتمعات الإنسانية وإسعادها، فكان لا يدع مناسبة تمر إلا ويحض المسلمين على التقارب والتحابب والتصافي.

وكان الرسول ﷺ يفعل هذا بنفسه، معلماً المسلمين كيف يبنون مجتمع المحبة والتآخي والصفاء، فقد أخذ يوماً بيد معاذ، وقال: «يا معاذ، والله إني

لأحبك ثم أوصيك يا معاذ: لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» [رواه أحمد 5/ 245 بإسناد صحيح].

وقد انطلق معاذ بنشر شذى هذا الحب الطاهر بين المسلمين في ديار الإسلام فيحدثهم بما سمع من رسول الله ﷺ عما أعده الله للمتحابين فيه من ثواب جزيل، ومحبة منه أكبر.

لقد جاء الإسلام ليبني المجتمع الأمثل القائم على المحبة والتآخي والتناصح، فكان لا بد من زرع المحبة في قلوب الأفراد الذي يتألف منهم المجتمع، لذلك جعل هذه المحبة بين المؤمنين وبين المؤمنات شرطاً من شروط الإيمان الذي به يدخلون الجنة، وذلك فيما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ، قال: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» [صحيح مسلم 2/ 35/ كتاب الإيمان].

إنها النظرة النبوية الصائبة الثاقبة، المدركة أنه لا يستل سخائم الحقد من النفوس، ولا يغسل أدران التنافس والحسد من الصدور إلا أخوة صادقة نبيلة عالية، تسود حياة المسلمين والمسلمات، وتملؤها بالمحبة والتواد والتناصح والتصافي، وتنقيها من الكراهية والغش والحقد، والحسد، والسبيل إلى ذلك كله إفشاء السلام ليكون مفتاح القلوب إلى الألفة والبر والمحبة والصفاء.

ومن هنا كان رسول الله ﷺ يكرر هذا المعنى على الأسماع، متوخياً إلقاء بذرة المحبة في القلوب، وتعهدها بالرعاية، حتى تثمر ذلك الحب النقي الوضيء الذي يريده الإسلام دوماً للمسلمين والمسلمات.

بهذه المحبة الصافية الصادقة استطاع رسول الله ﷺ أن يبني المجتمع المسلم الإنساني الأمثل القائم على أخوة الإيمان، فكان أعجوبة في صلابته

وصموده وتحمله تبعات الجهاد وتقديم التضحيات، لنشر الإسلام وتركيز أعلامه في الخافقين، كما كان أعجوبة في تماسكه وتسانده وتكافله الذي صوره رسول الله ﷺ أروع تصوير بقوله: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» [متفق عليه، شرح السنة 13/ 47].

لقد شاركت المرأة المسلمة في أيامها الأولى وعبر تاريخها الطويل في بناء ذلك الصرح الشامخ للإسلام من أخوة الإيمان، ولا تزال تشارك في ذلك البناء المبارك، بنشر نداء المحبة في الله وإشاعة شذاها العطر في المجتمعات الإسلامية، فتقبل على أخواتها وصديقاتها بقلبها ومشاعرها فتوطد أواصر الأخوة في الله، وتوثق عرى المحبة فيه.

15
لا تقاطع أخواتها وصديقاتها ولا تهجرهن

ولا يغيب عن بال المرأة المسلمة الواعية أحكام دينها أن الإسلام الذي حض على التآخي والتحابب والتعاطف هو الذي حرّم التقاطع والتدابر والهجر، وأكد أن الأحداث العارضة لا تفرق بين المتحابتين الصادقتين في الله، ذلك أن عروة المحبة في الله أشد وأقوى وأوثق من أن تنفصم من أول ذنب تقترفه إحداهما، يشهد لذلك قول الرسول ﷺ: «ما تواد اثنان في الله جل وعز، أو في الإسلام، فيفرق بينهما أول ذنب يحدثه أحدهما» [أخرجه البخاري في الأدب المفرد 1/ 493].

وقد تعصف بنفس المرأة نزوة غضب في لحظات الضعف البشري، فتسيء الأخت إلى أختها، وقد يؤدي بينهما الغضب والانفعال إلى المقاطعة، وهنا ينبغي ألا يغيب عن بال المرأة المسلمة أن هدي الإسلام لم يغفل طبيعة النفس البشرية، وأنها عرضة للانفعال ولنزوات العاطفة وتقلباتها، ولذلك وضع حداً للمدة التي يمكن للنفس الإنسانية أن تهدأ فيها ثائرة الانفعال ويسكن صوت الغضب، وقدّرها بثلاثة أيام، وحرّم على المتنازعين أن تمضي هذه الأيام الثلاثة، ولا تسارعان إلى المصالحة والتصافي والوئام، وفي ذلك يقول الرسول الكريم ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان، فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» [متفق عليه، شرح السنة 13/ 100].

وواضح أن كلمة (مسلم) تشمل الرجل والمرأة على السواء في مثل هذه النصوص التكليفية التشريعية التي تنظم حياة الفرد والأسرة والمجتمع في دنيا الإسلام.

ومن هنا نرى المرأة المسلمة التي صاغ مشاعرها الإسلام وهذّب نفسها لا تقوم على قطيعة الأخت من أخواتها، مهما كانت الأسباب، بل تسارع إلى مصافاتها والتسليم عليها، وإنها لتعلم أن خيرهما التي تبدأ بالسلام، فإن ردّت أختها تحيتها اشتركت كلتاهما في أجر المصالحة، وإن لم ترد عليها فقد برئت المُسَلِّمة من إثم القطيعة والهجر، وباءت الممتنعة عن رد التحية وحدها بالإثم.

ما أبشع جريمة المقاطعة والهجر في شرعة الإسلام! وما أثقل وزرها على مرتكبها ! حتى إنها لتكاد تعدل سفك الدم الحلال! ذلك أن منهج الإسلام في تربية النفوس قائم على المحبة والتقارب والتآخي والتآلف. ومن هنا يريد الإسلام أن ينتفي من حياتهم التباغض والتحاسد والتدابر، ولا يرضى أن يعكر صفو حياتهم شيء من تلك الأخلاق الوضيعة المجانبة لأخوة الإيمان، ولذلك ينسكب هديه في الأسماع راسماً أروع منهج للأخلاق عرفته البشرية منذ كان على ظهر هذه الأرض إنسان.

«لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا إخواناً كما أمركم الله» [صحيح مسلم، 16/ 120].

إن المرأة المسلمة التي هذب الإسلام مشاعرها لتتأمل هذه النصوص من الهدي النبوي، المختومة على المكارم للأخلاق كلها، من حب وتصاف وتواد وتآخٍ وإيثار لا يمكن أن تطوي صدرها على شحناء، ولا يمكن أن تقيم على قطيعة، فما تقيم على شحناء وتصر على قطيعة إلا امرأة في قلبها مرض وفي خلقها التواء، وفي عقلها تحجّر، والمرأة المسلمة بعيدة كل البُعد عن هذه الخلائق الوضيعة.

ومن هنا جاء الوعيد الشديد لقساة القلوب من الرجال والنساء، المنحرفين والمنحرفات عن هديه الحكيم، المحجوبة نفوسهم عن سماحته ونداه،

بإصرارهم على القطيعة والهجر، ويهدّدهم في آخرتهم ويحجب عنهم رحمة ربهم ومغفرته، ويغلق دونهم أبواب الجنة، وذلك في قول رسول الله ﷺ : «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا» [صحيح مسلم، 16/ 122].

إنها لنظرة صائبة نافذة عميقة من هذا الصحابي الجليل لروح هذا الدين القائم على المحبة والتآخي والتقارب، ما أجدر النساء أن يتأملنها في منازعاتهن ومهاتراتهن وخصوماتهن، إن التباغض يحبط العمل.

16

حسنة الخلق

المرأة المسلمة التقية حسنة الخلق نبيلة المعشر، موطأة الكنف، لينة القول، رقيقة الخطاب، دمثة التعامل، ألفة ومألوفة، وهي في ذلك كله متأسية بخلق الرسول الكريم ﷺ الذي يشهد خادمه أنس ﷺ أنه «كان أحسن الناس خلقاً» [متفق عليه، شرح السنة، 13/ 235].

ذلك أن أنساً ﷺ رأى من خلق الرسول الكريم ما لم يره من بشر، وما لم يتصور وجوده من بشر، ولندعه يحدثنا عن طرف من خلق الرسول الكريم ﷺ فيقول: «لقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي قط: أفٍّ، ولا قال لشيء فعلته: لِمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا» [متفق عليه، رياض الصالحين، 336]. كان رسول الله ﷺ على خلق عظيم كما وصفه ربه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:4].

وكان يكرر على أسماع صحابته أثر حسن الخلق في تكوين شخصية الإنسان المسلم وفي رفع درجته عند الله، وسمو منزلته بين الناس، من ذلك قوله: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً» [فتح الباري، 10/ 456].

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يسمعون هذا التوجيه النبوي العالي في حسن الخلق ويرون بأعينهم التجسيد الحي للأخلاق الكريمة في شخصية الرسول ﷺ، فتنطبع مكارم الأخلاق في أنفسهم، وتصبح سجية من سجاياهم، وخليقة من خلائقهم، ومن هنا نشأ ذلك الجيل الأخلاقي الفرد، في ذلك المجتمع الأمثل في خير القرون.

كان حسن الخلق عند غير المسلمين يرجع إلى حسن التربية وسلامة التنشئة ورقي التعليم، فإن حسن الخلق عند المسلمين يعود قبل هذا كله إلى هدي الدين الذي جعل الخلق سجية أصيلة في الإنسان المسلم، ترفع منزلته في الدنيا، وترجح كفة ميزانه في الآخرة، إذ ما من عمل أثقل في ميزان الإنسان المؤمن يوم الحساب من حسن الخلق، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ بقوله: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، فإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء» [رواه الترمذي 3/ 244].

بل إن الإسلام جعل حسن الخلق من كمال الإيمان إذ عدّ أحسن الناس أكملهم إيماناً وذلك في قول الرسول ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» [رواه الترمذي، 2/ 315]. وجعل أحسن الناس خلقاً من أحب عباد الله إليه، لا غرو أن يكون الأحسن خلقاً أحبهم إلى الله، ذلك أن حسن الخلق في شريعة الإسلام شيء عظيم، إنه لأثقل ما يوضع في ميزان العبد يوم القيامة. كما رأينا وإنه ليعدل الصلاة والصيام ركني الإسلام الكبيرين كما قرر رسول الله ﷺ في قوله: «لا يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق ليبلغ بصاحبه درجة الصوم والصلاة» [رواه الطبراني في الكبير، 1/ 181].

ومن هنا كان رسول الله يؤكد أهمية حسن الخلق للصحابة الكرام ويحضهم على التجمل به، ويحببه إلى نفوسهم بأساليب شتى في قوله وفعله إدراكاً منه لأثره في تهذيب الطباع وتزكية النفوس، وتجميل الخلائق.

إن دعاء الرسول الكريم ﷺ أن يحسّن الله خُلُقَه، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ لدليل على عميق اهتمامه الشديد بحسن الخلق ورغبته الحارة في أن يستزيد المسلمون دوماً منه مهما سمو في معارجه الوضاء، كما كان يستزيد نبيهم العظيم بهذا الدعاء «اللهم أحسنت خَلقي فأحسن خُلقي» [رواه أحمد، 1/ 403].

وحسن الخلق كلمة جامعة يندرج تحتها كل خلق كريم يجمل الإنسان ويزكيه ويسمو به، كالحياء والحلم، والرفق، والسماحة، والعفو والصدق والأمانة والاستقامة والنصيحة، وصفاء السرير، وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

إن غاية الإسلام تكوين شخصية الإنسان الاجتماعية تكويناً دقيقاً، لا يكتفي بالعموميات بل يقف عند كل جزئية من الجزئيات الخلقية التي تكون جانباً من جوانب الشخصية الاجتماعية المتكاملة، وهذا الاستيعاب والشمول، لم يتوافر في منهج من مناهج التربية الاجتماعية وتوافرهما في منهج من مناهج هذا الدين.

ولا مناص للباحث المتصدي لتجلية شخصية المرأة المسلمة من الوقوف عند هذه النصوص جميعاً، والإلمام بما تضمنته من هدي وتوجيه وتشريع ليستطيع تجلية الشخصية الاجتماعية الراقية التي تميّز بها الإنسان المسلم، رجلاً كان أو امرأة ويحدد طابع تلك الشخصية المميّزة وصفاتها.

17

صادقة

فالمرأة المسلمة صادقة مع الناس جميعاً، لأنها لُقِّنت مبادئ الإسلام التي تحض على الصدق، وتصوره رأس الفضائل ورأس مكارم الأخلاق، وتنهى عن الكذب، وتعده منبع الرذائل، والمفاسد وأعمال السوء، ولأن المرأة المسلمة تعتقد أن الصدق يقود إلى البر المفضي بصاحبه إلى الجنة، وأن الكذب يدفع إلى الفجور المفضي بصاحبه إلى النار، كما أخبر بذلك الرسول الكريم ﷺ : «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وأن الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً» [متفق عليه، رياض الصالحين: 50 باب الصدق].

ومن هنا كانت المرأة المسلمة حريصة على أن تكون صادقة، تتحرى الصدق وتلتزم به في أقوالها وأفعالها. وإنها لمرتبة سامقة عالية تبلغها المرأة المسلمة التقية بصدقها ونقاء سريرتها، فتُكتب عند ربها صدّيقة مكرمة.

18

لا تشهد الزور

والمرأة المسلمة النقية التي صاغت شخصيتها تعاليم الإسلام وهديه الرفيع، لا تشهد الزور، لأن شهادة الزور حرام في شرعة الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج:30].

وشهادة الزور إلى جانب تحريمها تزري بالمهانة، وتخل بالشرف، وتجرح شخصية صاحبها، وتبرزه ملتوياً وتافهاً في أعين الناس.

لذلك نفى القرآن الكريم هذه الصفة نفياً قاطعاً عن عباد الرحمن المصطفين الأخيار، من الرجال والنساء على السواء، فيما نفى عنهم من كبائر إذ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان:72].

وليس أدل على فداحة هذه المعصية من أن الرسول ﷺ ساقها بعد أكبر كبيرتين في سلّم المعاصي التي تعرّي الإنسان من نعمة الإيمان: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، ثم كررها على مسامع المسلمين محذراً منبهاً من الارتكاز فيها، وهو من أشد حالات الانفعال، إذ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت» [متفق عليه، رياض الصالحين، 689].

19

ناصحة

والمرأة المسلمة الواعية التقية لا تكتفي بنقاء نفسها من الصفات الذميمة بل تبذل النصح لكل امرأة تصل إليها، من النساء اللواتي شردن عن هدي الله، وكم من امرأة في المجتمعات النسائية أسرفت على نفسها، فهي بحاجة إلى من ينصحها ويلفت نظرها إلى الجادة المستقيمة التي أمر الله بسلوكها.

وسداد النصيحة عند المرأة المسلمة الراشدة ليس تطوعاً وتفضلاً وتكرماً منها وإنما هو واجب حض عليه الدين، بل إن الدين هو النصيحة بعينها، كما أخبر الرسول الكريم بقوله: «الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله، ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم» [صحيح مسلم، 2/ 37].

وكان الصحابة الكرام يبايعون الرسول ﷺ على الصلاة والزكاة والنصيحة لكل مسلم.

وما أروع تعبير الرسول ﷺ عن النصيحة بقوله: «الدين النصيحة» فقد أوجز الدين كله وجمعه في كلمة واحدة هي النصيحة، إشعاراً منه لكل مسلم بقيمة النصيحة وأثرها الكبير في حياة الأفراد والأسر والمجتمعات، فما فشت النصيحة في قوم إلا هدوا إلى الطريق المستقيم، وما اختفت النصيحة إلا ضلوا عن الطريق المستقيم.

إن اقتران النصيحة بالصلاة والزكاة في بيعة الصحابي الجليل لرسول الله ﷺ لدليل على أهميتها في ميزان أعمال الإنسان المسلم، وخطورتها في تقرير مصيره في آخرته، ومن هنا كانت خليقة أصيلة من خلائق المسلم الصادق التقي الحريص على حسن عاقبته يوم يقوم الناس لرب العالمين.

20

تدل على الخير

المرأة المسلمة التقية التي هذب الإسلام نفسها، وأنقذها من أدران الأنانية وحب الظهور، تدل على الخير متى علمت به، ليخرج إلى النور، وينتفع الناس به، وسيان لديها أتم فعل الخير على يديها أم على يدي غيرها، لأنها تعلم من دلّ على الخير فله مثل أجر فاعله، كما أخبر رسول الله ﷺ بقوله: «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله» [صحيح مسلم، 13/ 38].

إن المرأة المسلمة بعيدة عن احتجاب الخير لنفسها، للتباهي بفعله أمام الناس شأن الأنانيات المبتليات بحب الظهور والمباهاة، وحسب المرأة المسلمة الدالة على فعل الخير أن أجرها عند الله ثابت في الحالتين، وثواب الله لدى المرأة المسلمة التقية أكبر وأعظم من السمعة والشهرة وحب الظهور، وفي ذلك إشاعة للخير في المجتمع، ليقوم كل فرد بما يسّر الله له منه.

وكم حجبت هذه الآفات النفسية القاتلة الخير عن المجتمعات، لأن أصحابها يودون أن يقوموا هم دون سواهم بفعل الخير، ولكن ظروفهم لا تمكنهم من القيام به، فيبقى الخير موءوداً، والمصالح معطلة، والمجتمعات محرومة من ذلك الخير الذي دار في بعض الرؤوس، فكتمته وسكتت عنه انتظاراً لفرصة تسنح تمكنهم من تنفيذه، وقد لا تسنح هذه الفرصة، وينتهي العمر، ويبقى الخير حبيس الرؤوس المظلمة.

والمسلمون من الرجال والنساء، المتطلعون إلى رضوان الله، ومثوبته براء من هذه الآفات، يدلون على الخير فور علمهم به، ويحظون بثواب ربهم كفاعل الخير سواء.

21

لا تغش ولا تخدع ولا تغدر

والمرأة المسلمة الصادقة التي ألفت الصدق، وأصبح سجية من سجاياها وخليقة من خلائقها، لا تغش الناس، ولا تخدعهم ولا تغدر بهم، لأن الغش والخداع والغدر خلائق وضيعة، تُنافي الصدق ولا تلائمه، ذلك أن الصدق يستدعي النصيحة والاستقامة والوفاء والعدل، ويتجافى مع الكذب والغش والخداع.

وإن فطرة المرأة المسلمة الصادقة، المتشبعة بهدي الإسلام الحنيف لتنفر من الغش والخداع والغدر، وترى في هذه الأخلاق السيئة إمارة على انسلاخ صاحبها من الانتساب للإسلام، كما قرر الرسول ﷺ بقوله في الحديث الذي رواه مسلم: «من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا» [صحيح مسلم، 2/ 108] ذلك أن مجتمع المسلمين قائم على نظافة المشاعر الإنسانية، وعلى التضحية لكل مسلم، وعلى الوفاء بالعهد لكل فرد من أفراده، فإذا ما وجد فيهم غشاش، مخادع غدار، فإنما هو دخيل على هذا المجتمع، غريب عن أفراده.

ولقد عدّ الإسلام الغش والخديعة والغدر من الجرائم البشعة التي تزري بصاحبها في الدنيا وتسود وجهه في الآخرة، إذ أعلن رسول الله ﷺ أن كل غادر سيحشر يوم القيامة، وهو يحمل لواء غدرته، والمنادي ينادي على رؤوس الأشهاد، دالاً عليه، لافتاً إلى غدرته الأنظار: «لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان» [متفق عليه، شرح السنة، 10/ 71] فيا لخجلة الغدارين

والغدارات الذين حسبوا أن غدراتهم طوتها الأيام، فإذا هي تنشر يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وألويتها مرفوعة بأيديهم.

وإن خجلتهم لتزداد سوءاً وخزياً يوم القيامة حين يجدون رسول الله ﷺ وهو المؤمل المرتجى للشفاعة في هذا الموقف الرهيب، يعلن أن رب العزة خصماً لهم، لأنهم اقترفوا جريمة الغدر الفادحة، وإنها لجريمة كبرى، تحجب عن صاحبها رحمة الله، وتحرمه شفاعة الرسول الكريم ﷺ .

إن المرأة المسلمة الصادقة التي ارتوت من هدي دينها الحق لتبتعد عن خلائق الغش والخديعة والغدر بكل صورها وأشكالها، وإنها لكثيرة في عالم المرأة المعاصرة، وتربأ بنفسها أن تسلكها في زمرة الغشاشات المخادعات الغادرات اللواتي عدّهن رسول الله ﷺ من المنافقات.

«أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» [متفق عليه، شرح السنة، 1/ 74].

22
لا تتكبر

والمسلمة الصادقة الواعية لا تتكبر، ولا تشمخ بأنفها استعلاءً على غيرها من النساء ممن دونها جمالاً، أو مالاً، أو نسباً أو مقاماً، لأن المرأة المسلمة المستنيرة بهدي دينها تعلم أن التكبّر والاستعلاء والتشامخ في الدنيا يحرم صاحبته من نعيم الآخرة التي حرّم الله نعيمها على المتكبرين والمتكبرات وجعله للذين لا يريدون الاستعلاء والاستكبار في الأرض.

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:83].

ومن يتأمل نصوص السنّة المطهرة يدهش لشدة عناية الرسول ﷺ باستئصال شأفة الكبر من النفوس بنهيه عنه وتنفير الناس منه، وتحذير المبتلين والمتبليات بدائه من أن يخسروا آخرتهم كلها، إن تسرب إلى نفوسهم مثقال ذرة من كبر، ينفثها الشيطان في روعهم، فإذا هم من المتكبرين الذين حرّم الله عليهم دخول الجنان، كما في الحديث الذي رواه مسلم: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» [صحيح مسلم، 2/ 89].

وحسب المتكبرات المستعليات المختالات على قريناتهن المهانة المعنوية التي أعدّها الله لهن في الآخرة، بحرمانهن من نظر الله إليهن، ومن تكليمه إياهن، وتزكيتهن، وإنها لمهانة ما بعدها مهانة.

يقول رسول الله ﷺ : «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره بطراً» [متفق عليه، شرح السنة، 12/ 9].

ذلك أن الكبرياء من شأن الإله عز وجل، وليس من شأن العباد المخلوقين الضعفاء، وإن كل بشر تسول له النفس التكبر يعتدي على مقام الألوهية، وينازع الخالق العظيم في صفة من صفاته العلياء، ويبوء بالخزي والعذاب الشديد في الآخرة، كما في الحديث الذي رواه مسلم: «قال الله عز وجل: العز إزاري، والكبرياء ردائي فمن نازعني بشيء منه عذبته» [صحيح مسلم، 16/ 173].

ومن هنا جاءت نصوص السنّة المطهرة متتابعة متوالية محذرة المؤمنين والمؤمنات من أن تلابسهم نزوة من كبر في لحظة من لحظات الغفلة والضعف البشري ليبقوا في منجاة من التلبس بهذه الخليقة الممقوتة، وعصمة من الانزلاق إليها. ومن تلك النصوص المحذرة المنبهة: «ومن تعظم في نفسه، أو اختال في مشيته، لقي الله عز وجل، وهو عليه غضبان» [أخرجه البخاري، 2/ 7].

23

متواضعة

لا غرو أن تكون المرأة المسلمة المحيطة بشيء من هدي دينها متواضعة، لينة الجانب، سمحة النفس، رقيقة المعشر، ذلك أنها تجد في مقابل تلك النصوص المهددة المتوعدة المتكبرين والمتكبرات، تجد نصوصاً مرغبة حاضّة محببة بالتواضع وخفض الجناح، تَعِدُ كل من تواضع لله بالرفعة والعزة والسمو، كما في قول الرسول ﷺ الذي رواه مسلم: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» [صحيح مسلم، 16/ 141].

وتجد المرأة المسلمة المتأملة سيرة المصطفى ﷺ شخصيته العظيمة مثالاً حياً فريداً في التواضع وخفض الجناح ولين الجانب وعفوية التبسط وكرم الخلق وسماحة النفس، حتى إنه كان إذا مرّ بالصبيان يلعبون، وقف عليهم مسلماً متبسطاً وممازحاً، لا يحجبه عن هذا التواضع العظيم مقام النبوة ولا جلال القيادة ولا رفعة المنزلة.

فقد ذكر أنس رضي الله عنه أنه مرّ على الصبيان فسلّم عليهم، وقال: «كان النبي ﷺ يفعل ذلك» [متفق عليه، رياض الصالحين، 231].

وكان صلوات الله عليه يغرس في نفوس الصحابة خلق التواضع المبني على السماحة ولين الجانب ودماثة الطبع، ضارباً المثل بنفسه في قبوله دعوة الناس البسطاء وهداياهم، مهما كانت متواضعة بسيطة كما في الحديث الذي رواه البخاري «لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إليّ ذراع أو كراع لقبلت» [فتح الباري 5/ 199]. فيا للتواضع في أجلى صوره ويا للعظمة الإنسانية في أسمى معانيها.

24
معتدلة في لباسها ومظهرها

تلزم المرأة المسلمة الواعية هدي دينها الاعتدال في كل شيء، وبخاصة في لباسها ومظهرها، فتحرص على حسن مظهرها، بلا إسراف ولا مبالغة ولا خيلاء، فهي لا تجري وراء كل ناعق وناعقة في الإسراف والمبالغة في تغيير الملابس الجديدة وطرحها بعد ارتدائها مرة واحدة، لاهثة وراء تقليعات (الموضة) التي لا تقف عند حد، كما تفعل بعض النسوة المسرفات الفارغات الجاهلات، ولا هي تهمل مظهرها وملابسها وأناقتها المعتدلة المحببة.

إنها لتقف في ذلك كله عند حدود الاعتدال الذي بيّنه القرآن الكريم، وجعله من صفات عباد الرحمن من المؤمنين والمؤمنات ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:67].

وتحذر المرأة المسلمة أن تقع فريسة لعبودية (الموضة) التي تتحكم بها دور الأزياء ومن يقف وراءها، ممن لا يرجون لله وقاراً، ولا يريدون بالمرأة خيراً وبخاصة المرأة المسلمة. تحذر هذه العبودية التي حذّر منها رسول الله ﷺ وجعلها مصدر تعاسة وبلاء وخسران: «تعس عبد الدنيار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يعطَ لم يرضَ» [فتح الباري، 6/ 81].

ذلك أن للمرأة المسلمة من هدي ربها ما يعصمها من الانزلاق في مهاوي التبختر والخيلاء والإعجاب بالمظهر الحسن وغير ذلك من المهلكات مما أخبر عنه الرسول ﷺ إذ قال: «بينما رجل يتبختر، يمشي في بردته، قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» [صحيح مسلم، 14/ 64].

إن المرأة المسلمة لتأخذ بالزينة الحلال والأناقة المشروعة، وترتدي الملابسِ الثمينة الجميلة الأنيقة، وهذا كله من الطيبات التي أحلها الله دون أن تنحرف إلى التردّي في المبالغة والإسراف والشطط، وهذا هو الاعتدال الذي دعا إليه الإسلام وحضّ عليه، وشتان بين المرأة المعتدلة الحكيمة الرزينة وبين المرأة المسرفة السخيفة الفارغة.

إن المرأة المسلمة الواعية بعيدة في ملبسها ومظهرها عن الإفراط والتفريط، فهي ليست مفرطة مسرفة في زينتها وملبسها وهيئتها، ولا مفرطة مقترة في شكلها وثيابها ومظهرها إلى حد البخل، أو الزهد في الزينة والأناقة والمظهر الحسن ظناً منها أنها بذلك الزهد تتعبد ربها وتفوز برضاه.

ذلك أن المرأة التي ترتدي الملابس الجميلة فخراً وزهواً وخيلاء وتيهاً على قريناتها هي آثمة؛ لأن الله لا يحب كل مختال فخور، أما التي ترتديها إظهاراً لنعمة الله واستعانة على طاعته فهي طائعة مأجورة.

والتي تعزف عن جميل الثياب، وتتركها بخلاً بالمال، فلا مكانة لها ولا احترام في نفوس الناس، ولا أجر لها عند الله، أما التي تترك الملابس الجميلة زهداً، وهي تظن أنها تتعبد ربها بتحريم المباحات على نفسها، فهي آثمة أيضاً كما يقول ابن تيمية رحمه الله: «وملاك سعادة المرأة في دينها ودنياها: القصد والتوسط والاعتدال»، وهذا شأن المرأة المسلمة.

25
تكرم الضيف

تهش المرأة المسلمة الصادقة لاستقبال الضيف، وتسارع إلى إكرامه، مستجيبة في ذلك إلى نداء إيمانها بالله واليوم الآخر، كما وصفه الرسول ﷺ بقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» [متفق عليه، شرح السنة، 14/312].

فالمرأة المسلمة إذ تكرم الضيف تؤكد إيمانها بالله واليوم الآخر وتقوم بواجب الضيافة التي نص عليها حديث رسول الله ﷺ سمّاها جائزة، وكأنها شكر للضيف على ما أتاح للمضيف من عمل صالح، يثبت فيه إيمانه ويرضي ربه: «من كان يؤم بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته، قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: يومه وليلتُهُ، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة» [متفق عليه، رياض الصالحين: 379].

ومن هنا كان إكرام الضيف عملاً عزيزاً محبباً إلى كل مسلمة تؤمن بالله واليوم الآخر، تثاب عليه من الله، تكسب حسن الأحدوثة وجميل الذكر بين الناس. وقد نظم الإسلام الضيافة، ووضع لها حدوداً، فجائزة الضيف يوم وليلة، ثم يأتي واجب الضيافة، ومدته ثلاثة أيام، وما زاد عن ذلك فهو صدقة تثبت في صحيفة المرأة الكريمة المضياف.

وليس إكرام الضيف في الإسلام أمراً اختيارياً يتبع الأمزجة والنفسيات والاجتهادات الشخصية، وإنما هو واجب كل مسلم ومسلمة، عليهما أن يبادرا إلى تأديته إذا ما قرع بابهما طارق، أو نزل بفنائهما ضيف.

«ليلة الضيف حق واجب على كل مسلم، فمن أصبح بفنائه فهو دين عليه، فإن شاء اقتضاه، وإن شاء تركه» [أخرجه البخاري، 2/ 207].

أما الذين يضيقون ذرعاً باستقبال الضيف، ويغلقون دونه الأبواب فلا خير فيهم، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن النبي ﷺ : «لا خير فيمن لا يُضيف» [رواه الإمام أحمد، 4/ 155].

لقد أوجب الإسلام الضيافة على كل مسلم ومسلمة، وعدّها حقاً مفروضاً للضيف، لا ينبغي أن يقصر في أدائه إنسان مسلم، فإذا استحكم شح النفوس في قوم، وبلغ بهم أن يمنعوا الضيف حقه، فإن الإسلام أذن للضيف أن يأخذ حقه منهم، وذلك في الحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما عن عقبة ابن عامر قال: قلت: يا رسول الله، إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يُقرونا، فما ترى في ذلك؟ فقال: «إن نزلتم بقوم فأمر لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم» [رواه الشيخان، 2/ 210].

إن إكرام الضيف خلق إسلامي أصيل، ومن هنا لا تجد مسلمة حَسُن إسلامها بخيلة ممسكة ممتنعة عن إكرام الضيف أو مخذلة زوجها عن استقباله وإكرامه، مهما كانت حالتها وحالة زوجها، ذلك أن طعام اثنين يكفي الثلاثة وطعام الثلاثة يكفي الأربع، وأن لا خوف ألبتة من طروق الضيف المفاجئ، فعن أبي هريرة ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ : طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة» [متفق عليه، شرح السنّة 11/ 320].

وعن جابر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية» [صحيح مسلم، 14/ 22].

إن المرأة المسلمة التي صاغ نفسيتها الإسلام، وهذب طباعها هديه الرفيع لا تخاف كثرة الأيدي على الطعام، شأن المرأة الغربية التي لا تستقبل ضيفاً لم

يعد له طعاماً من قبل، بل إن المرأة المسلمة لتستقبل ضيوفها ولو فاجؤوها في زيارتهم: وترحب في مشاركتهم طعامها وطعام أسرتها، وما عليها إن نقص حظ معدتها لقيمات معدودة، لأن الجوع أهون عند المسلمة الصادقة من الإعراض عن الضيف الذي أمر الله ورسوله بإكرامه، بل إنها لتعتقد أن الله يبارك طعام الواحد، فإذا هو يكفي الاثنين ويبارك في طعام الاثنين، فإذا هو يكفي الأربعة وهكذا.

ولا داعي لذلك الجفاف المقيت الذي قبل به الإنسان الغربي، ربيب المدنية المادية في الشرق والغرب على السواء.

26

تأخذ بأدب الإسلام في الطعام والشراب

تتميّز المرأة المسلمة النابهة بحرصها على الأخذ بأدب الإسلام في الطعام والشراب فإذا ما رأيتها على المائدة تتناول طعامها، أو رأيت ترتيبها لمائدتها عرفتها من الآداب الإسلامية التي أخذت نفسها بها في طعامها وشرابها وترتيب مائدتها.

فهي لا تبدأ الطعام إلا بعد أن تسمي الله، وتأكل بيمينها ومما يليها عملاً بقول رسول الله ﷺ : «سمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك» [متفق عليه، رياض الصالحين، 394].

وإذا أُنسيت أن تذكر اسم الله في أول طعامها استدركت ما فاتها فقالت: بسم الله أوله وآخره، كما في الحديث الذي روته السيدة عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإن نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله فليقل: بسم الله أوله وآخره» [رواه أبو داود، 3/ 475 كتاب الأطعمة].

أما المسألة الثانية فهي أكلها بيمينها، فالمسلمة المتأدبة بآداب الإسلام تأكل بيمينها، وقد جاء الأمر بالأكل باليمين والنهي عن الأكل بالشمال، منها قول الرسول ﷺ : «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله» [صحيح مسلم، 13/ 191].

إن الرسول ﷺ كان يحب التيامن في كل شيء، ويحض على الأخذ به، عن سهيل بن سعد ﷺ قال: «أُتِيَ رسول الله ﷺ بشراب، فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ للغلام، فقال: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال

الغلام: لا والله لا أوثر بنصيبي منك أحداً، فتلّه رسول الله ﷺ في يده» [متفق عليه، شرح السنّة، 11/ 386].

إن التيامن أدب مهم من آداب الإسلام، يأخذ الإنسان المسلم الحق به نفسه دونما تساهل أو تراخ، وهذا ما كان يفعله الصحابة والتابعون من بعده.

إن المرأة المسلمة الواعية بهدي دينها القويم لتعمد إلى الأكل باليمين داعية النساء إلى ذلك، ولا تخجل أن تجهر به في المحافل والمجتمعات التي لا تزال تتمسك بحرفية ما جاءنا من الغرب، حتى يتنبه الغافلون والغافلات ويثوبون إلى رشدهم في اتباع هدي السنّة المطهرة في التيامن في الطعام والشراب.

أما المسألة الثالثة فهي أكلها مما يليها عملاً بأدب الإسلام في تناول الطعام، وقد جاء به الأمر النبوي صريحاً وواضحاً مع التسمية والأكل باليمين، ومنها قوله فيما رواه عمر بن أبي سلمة ﷺ قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ : «يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك» [متفق عليه، رياض الصالحين، 399].

وللائق بالمرأة المسلمة الواعية المهذبة إذا تناولت طعامها بيدها أن تتناوله برفق ولطف وتؤدة، كما كان رسول الله ﷺ يفعل، إذ كان يتناول طعامه بأصابع ثلاث، ولا يغمس يده كلها في الطعام على نحو تشمئز منه الأنظار وتنفر النفوس.

وفي هذا الهدي النبوي الكريم، إضافة إلى التماس البركة، حض على نظافة الأيدي والآنية، ومسحها من بقايا الأطعمة أليق بالإنسان المهذب النظيف، وأدل على نظافته وتربيته وذوقه المرهف، وقد وصل الغرب اليوم إلى الأخذ بهذه العادة الحسنة التي قررها الرسول الكريم منذ خمسة عشر قرناً، فالأوروبيون اليوم يمسحون الصحون، ولا يدعون فيها شيئاً.

ومن البديهي أن المرأة المسلمة المهذبة المتأدبة بأدب الإسلام لا تتمطق في أكلها ولا تشخر، ولا تنفخ في أثناء مضغها الطعام، محدثة أصواتاً منفرة مزعجة، ولا تكبّر اللقمة بحيث يصبح منظر فمها منتفخاً مزرياً قبيحاً مخلاً بجمال أنوثتها ورقتها ولطفها.

حتى إذا فرغت من طعامها، لهج لسانها بالحمد لله عز وجل بالصيغة الرائعة التي علّمها إياها الرسول الكريم، شاكرة لله نعمته، ملتمسة منه أجر الحامدين ومثوبة الشاكرين.

فعن أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ ، كان إذا رفع مائدته، قال: «الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مكفي ولا مودّع ولا مستغنىً عنه، ربَّنا» [صحيح البخاري: 5458].

وعن معاذ بن أنس ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته، قال: «من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه» [فتح الباري، 9/ 580].

ولا تعيب المرأة المسلمة الطعام مهما كان أخذاً بالهدي النبوي في ذلك، وجرياً على فعل الرسول ﷺ حين يأتيه الطعام. فعن أبي هريرة ﷺ قال: «ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط! إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه» [رواه أبو داود، كتاب اللباس، 4/ 63].

وأما آدابها في الشراب فمستمدة أيضاً من أدب الإسلام الذي أدّب الإنسان فأحسن تأديبه في كل شأن من شؤون الحياة.

فهي تشرب على دفعتين أو ثلاث، بعد التسمية، ولا تتنفس في الإناء، ولا تشرب من فم السقاء ما أمكنها ذلك، ولا تنفخ في الشراب، وتشرب قاعده إن استطاعت.

أما الشراب على دفعتين أو ثلاث، فهو ما كان عليه الرسول ﷺ ، كما أخبر بذلك أنس ﷺ بقوله: «كان رسول الله ﷺ يتنفس خارج الإناء (الشراب) ثلاثاً» [رياض الصالحين، 406]. ولقد نهى الرسول ﷺ عن الشراب دفعة واحدة بقوله: «لا تشربوا واحداً كشرب البعير، ولكن اشربوا مثنى وثلاث، وسموا إذا أنتم شربتم، واحمدوا إذا أنتم رفعتم» [رواه الترمذي، 4/ 302].

ويتبين أن الأحسن صنعاً والأمثل طريقة ألا تشرب المسلمة من فم السقاء ما أمكنها ذلك، وأن تشرب قاعدة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فذلك أمثل وأكمل وأفضل.

27

تلتزم بتحية الإسلام

ومن آداب المرأة المسلمة التي تتميّز بها، التزامها بتحية الإسلام، تلقيها على من تلقى من المسلمين والمسلمات، حسب قواعد السلام التي نظمها الإسلام، إذ أمر بإفشاء السلام.

وإفشاء السلام في الإسلام أدب إسلامي أصيل محدد منظم، أمر به رب العزة في كتابه الكريم، ونظمه ووضع أصوله وقواعده رسوله الأمين في أحاديثه الغزيرة التي أفردها المحدثون بباب مستقل سموه (كتاب السلام).

لقد أمر الله تعالى المؤمنين بالسلام في كتابه الكريم فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النور:27].

وأمر برد التحية بأحسن منها أو بمثلها، ومن ثم كان واجباً على كل من سمع تحية أن يردها ولا يتجاهلها أو يتهاون في ردّها. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء:86].

وجاء الهدي النبوي غزيراً يحض بحرارة على إفشاء السلام وإسماعه من نعرف ومن لا نعرف، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي ﷺ : أيّ الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» [متفق عليه، شرح السنّة، 12/ 260].

لقد أعطى الرسول ﷺ قضية السلام جانباً كبيراً من اهتمامه، وحض على تطبيقه وحبب فيه، في قسم كبير من أحاديثه لما كان يعلم من أثره الكبير في

تفجير ينابيع الحب في النفوس، وتوثق عرى القلوب وإحكام وشائج الود والتقارب بين الأفراد والجماعات، حتى إنه جعله سبب المحبة التي تفضي إلى الإيمان، الموصل إلى الجنة وذلك في قوله: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَلا أدلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» [صحيح مسلم، 2/ 35].

وجعل أولى الناس بالله ومرضاته ونعمه وخيراته من يبدأ الناس بالسلام «إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام» [رواه أبو داود، كتاب الأدب 5/ 380].

والسلام في الإسلام ليس تقليداً اجتماعياً، إنما هو أدب إسلامي محدد في صيغته وقواعده وأصوله، وله صيغة واحدة يلتزمها المسلمون والمسلمات الواعون آداب دينهم، الحريصون على تطبيق هديه المتميّز الأصيل وهي: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» يقولها المبتدئ أو المبتدئة بالسلام هكذا بضمير الجمع، ولو كان المسلَّم عليه واحداً أو واحدة، ويقول المجيب أو المجيبة: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

والمرأة المسلمة الحريصة على تميّز شخصيتها المسلمة تتمسك بصيغة هذه التحية المباركة، تحية الإسلام، ولا تبغي عنها بديلاً.

إن تحية الإسلام هذه هي التحية التي اصطفاها الله تعالى لخلقه منذ أن خلق آدم، علّمه إياها. وأمره أن يحيي الملائكة، وأراد لذريته على مدى العصور أن تتمسك بها، لما تحمل من معنى السلام، أحب شيء للإنسان في كل مكان وزمان، ولم تبق هذه التحية الربانية الأصيلة سوى أمة الإسلام التي بقيت على الملّة الحنيفة السمحة، لم تُغير فيها ولم تبدل، ولم تنحرف عن هديها ولم تمل، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «لما خلق الله آدم عليه السلام قال: اذهب فسلّم على أولئك - نفر من الملائكة جلوس - فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك،

فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله» [رياض الصالحين: 437].

ولا شك إذاً أن تكون هذه الصيغة هي التحية المباركة الطيبة، لأنها جاءتنا من عند الله تعالى، وأمرنا أن نتخذها تحيتنا، ولا نعدل عنها إلى سواها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:61].

ومن أجل ذلك التزم بصيغتها جبريل عليه السلام حين قرأ على عائشة السلام وكذلك التزمت عائشة رضي الله عنها بصيغة الرد، كما جاء في الحديث المتفق عليه: «عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ : هذا جبريل يقرأ عليك السلام، قالت: قلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته» [برياض الصالحين، 440].

وللسلام قواعد تحرص المسلمة على إتقانها وتطبيقها بدقة في حياتها الاجتماعية، وتتلخص هذه القواعد في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «يسلّم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير» وفي رواية للبخاري «والصغير على الكبير» [رياض الصالحين، 550].

ويكون السلام أيضاً على الصبيان، تعويداً لهم على آداب التحية والسلام فعن أنس رضي الله عنه أنه مرّ على الصبيان تعويداً لهم على آداب التحية.

فعن أنس رضي الله عنه أنه مرّ على صبيان فسلّم عليهم وقال: «كان رسول الله ﷺ يفعله» [رياض الصالحين، 442].

ومن قواعد السلام وآدابه في الإسلام أن يلقى في الليل برفق وتؤدة وخفض صوت، بحيث يسمعه اليقظان، ولا يوقظ الوسنان، وهذا ما كان

يفعله رسول الله ﷺ ، فيما يرويه المقداد ﵁ في حديثه الطويل، قال: «كنا نرفع للنبي ﷺ نصيبه من اللبن، فيجيء من الليل فيسلم تسليماً لا يوقظ نائماً، ويُسمع اليقظان، فجاء النبي ﷺ فسلّم كما كان يسلم» [صحيح مسلم، 14/ 14].

ويكون السلام عند الدخول إلى المجلس وحين القيام، والمرأة المسلمة الواعية المتميّزة بخلقها الإسلامي الأصيل تستوعب هذا التوجيه النبوي الرفيع في السلام وآدابه، وتطبقه بدقة في حياتها الخاصة والعامة، وتحض على تطبيقه والالتزام بقواعده.

28

لا تدخل غير بيتها إلا باستئذان

إن المرأة المسلمة التي نهلت من معين الإسلام الصافي لا تدخل غير بيتها إلا أن تستأذن، وتسلّم على أهل ذلك البيت، وهذا الاستئذان أمر رباني لا يجوز التهاون أو التساهل في شأنه أو التغاضي عنه.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [النور:27-28]، ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾ [النور:59].

ولا يدور في خلد المرأة المسلمة أن تستأذن للدخول إلى بيت لا يجوز لها الدخول إليه، كأن يكون بيتاً ليس فيه سوى رجال أجانب، فاستئذانها يكون للدخول إلى النساء، أو إلى من يجوز له رؤيتها من الرجال ولا بد منه، تنفيذاً لأمر الله ورسوله.

وللاستئذان آداب حرص الإسلام على تجليتها للمسلمين والمسلمات وأمرهم بالتحلّي بها كلما قادتهم أقدامهم إلى زيارة إنسان.

أولها: ألا تقف المستأذنة أمام الباب، بل تأخذ يمنة أو يسرة، وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ ، فعن عبدالله بن بسر، صاحب النبي ﷺ «أن النبي ﷺ إذا أتى باباً يريد أن يستأذن لم يستقبله، جاء يميناً أو شمالاً فإن أُذن له، وإلا انصرف» [أخرجه البخاري، الأدب المفرد، 2/ 513].

ذلك أن الاستئذان جعل من أجل البصر، ومن هنا لا يجوز للمستأذن رجلاً كان أو امرأة أن يقف في مواجهة الباب حيث ينصب البصر حين فتحه.

ثانيهما: السلام فالاستئذان، ولا يصح الاستئذان قبل السلام.

ثالثهما: أن تسمي نفسها بما تُعرف به من اسم أو كنية، إذ قيل لها: من أنتِ؟ ولا تقول كلمة غامضة مثل: أنا، ونحوها، فقد كره النبي ﷺ أن يجيب الطارق بكلمة أنا التي لا تفصح عن هوية صاحبها وشخصيته، وأمر بذكر الاسم الصريح عند السؤال.

لقد علمنا الرسول الكريم بذلك أن السنّة في أدب الاستئذان ذكر الاسم الصريح، وهذا ما كان عليه هو وصحابته الأكرمون من الرجال والنساء.

فعن أبي ذر ﷺ، قال: «خرجت ليلة من الليالي، فإذا رسول الله ﷺ يمشي وحده، فجعلت أمشي في ظل القمر، فالتفت فرآني، فقال: من هذا؟ فقلت: أبو ذر» [رياض الصالحين، 447].

ورابعهما: أن يرجع إذا قيل له: ارجع، دون أن يجد في نفسه شيئاً من غضاضة، إذ ذلك ما جاء في كتاب الله العزيز، قال تعالى: ﴿فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور:28]. وبذلك أيضاً جاء الهدي النبوي مبيناً أن الاستئذان ثلاث، فإن أذن للمستأذن دخل، وإلا رجع. وذلك في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك، وإلا فارجع» [متفق عليه، رياض الصالحين، 445].

هذه هي آداب الاستئذان وقواعده في الإسلام، ولا ريب أن المرأة المسلمة النابهة الحريصة على التأدب بأدب الإسلام تتمثلها، وتطبقها في واقع حياتها كلما طرقت باباً، تستأذن للدخول على أهله، وتعلِّم هذه الآداب أبناءها وبناتها.

29

تجلس حيث ينتهي بها المجلس

ومن آداب المرأة التي استنارت بهدي الإسلام، جلوسها حيث ينتهي بها المجلس كلما غشيت مجلساً، فيه جالسات سبقنها إليه، إنه لأدب اجتماعي عالٍ مستقٍ من هدي الرسول الكريم القولي والعملي، يجعل كل من تحلى به آية في الذوق والرقي الاجتماعي والدماثة الخلقية.

إن المرأة المسلمة المهذبة بهذا الأدب الراقي، لا تتخطى الجالسات، ولا تزاحمهن في مجالسهن، ليفسحن لها مكاناً بينهن، وهي في ذلك تتبع السنّة الاجتماعية القويمة التي علمها رسول الله ﷺ صحابته الكرام حيث كانوا يغشون مجلسه الكريم.

فعن جابر بن سمرة ﷺ قال: «كنا إذا أتينا النبي ﷺ، جلس أحدنا حيث ينتهي» [رواه الترمذي، 5/ 73].

والمرأة المسلمة تتحاشى إقحام نفسها بين اثنتين، تفرق بينهما إلا إذا دعت إلى ذلك ضرورة، وبإذنهما: ذلك أن التفريق بينهما بغير إذنهما مما نهى عنه الرسول الكريم وحذر منه.

«لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما» [الترمذي، 5/ 44].

إن إقحام المرأة نفسها بين اثنتين، سواء أكان ذلك في مجلس أم في غير مجلس، من الأمور المستكرهة المستهجنة التي اشتد الإسلام في تبيان قبحها، والتنبيه إلى تجنبها، والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة جداً، وقد وردت في

صيغة التذكير طبعاً، لتنبيه الرجال إلى هذه الآداب التي وضعها الرسول ﷺ وهو معهم: ولكنها جميعاً تنسحب على النساء أيضاً.

وقد تقوم للقادمة إحدى الجالسات لتجلسها مكانها، فالأكرم والأفضل ألا توافق القادمة على الجلوس فيه، وهو أشبه ما كان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يقيمن أحدكم رجلاً من مجلسه، ثم يجلس فيه، ولكن توسعوا وتفسحوا» [متفق عليه، شرح السنّة، 12/ 296] وكان ابن عمر إذا قام له رجل من مجلسه لم يجلس فيه. [صحيح مسلم، 14/ 161].

والمرأة المسلمة تتحرى في مثل هذه المواقف والمناسبات هدي الإسلام الحنيف وما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، فتفوز بالأدب الاجتماعي الرفيع المحبب للناس، وتغنم بثواب الآخرة.

30 لا تناجي امرأة ثانية إذا كن ثلاثاً

من تلك القواعد والأساليب التي رسمها رسول الله ﷺ ألا يتناجى اثنان وفيهما ثالث: «إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناج اثنان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه» [متفق عليه، شرح السنّة، 13/ 90].

ومن هنا فإن المرأة المسلمة التي أرهف الإسلام مشاعرها، وربى فيها الذوق الاجتماعي الرفيع، لا تقبل على واحدة، فتخصها بالحديث، وبينهما ثالثة تقف منفردة مستوحشة متضايقة، بل تحرص على شعور هذه الأخت الثالثة وتضعه في حسابها مهما تكن الظروف، فإن كان هناك داعٍ للحديث بين الاثنتين استأذنت الثالثة وأوجزت الحديث واعتذرت إليها.

هذا هو خلق المرأة المسلمة التي عبّت من هدي الإسلام الحنيف، فتزودت الحصافة والكياسة واللياقة، وهذا هو أسلوبها الاجتماعي الراقي في التعامل مع الأخريات، اكتسبته من هدي دينها من سير وأخبار الصحابة رضوان الله عليهم الذين تغلغل الإسلام في حنايا نفوسهم.

إن المرأة المسلمة المتبعة هدي دينها لتقف متمثلة هدي الإسلام فإنها لا تناجي ولا تتناجى، فما أرقى هذا الأدب الاجتماعي الذي حض عليه الإسلام وما أدق احترامه لمشاعر الناس وأحاسيسهم.

31

تحرص على الأمانة

الأمانة ترمز إلى معانٍ شتى، مناطها كلها شعور المرء بتبعته في كل أمر يوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسؤول عنه أمام ربه.

قال ابن عمر: سمعت هؤلاء من النبي ﷺ وأحسبه قال: «الرجل في مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيته» [رواه البخاري] والعوام يقصرون الأمانة في أضيق معانيها وآخرها ترتيباً، وهو حفظ الودائع، مع أن حقيقتها في الدين أضخم وأكمل.

من معاني الأمانة:

1- وضع كل شيء في المكان الجدير به واللائق له، فلا يُسنَد منصب إلا لصاحبه الجدير به، ولا تملأ وظيفة إلا بصاحبها الذي ترفعه كفاءته إليها.

الأمانة تقضي بأن نصطفي للأعمال أحسن الناس قياماً بها، فإذا ملنا عنه إلى غيره فقد ارتكبنا خيانة فادحة.

والأمة التي لا أمانة فيها، هي الأمة التي تعبث فيها المصالح وتطيش بأقدار الرجال لتهملهم وتقدّم مَن دونهم.

جاء رجل يسأل رسول الله ﷺ : متى تقوم الساعة؟ فقال له: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة».

فقال: وكيف إضاعتها ؟

قال: «إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة» [رواه البخاري].

2- أن يحرص المرء على أداء واجبه كاملاً في العمل الذي يناط به، وأن يستنفذ جهده في إبلاغه تمام الإحسان، وهي أن تخلص المرأة في عملها وأن تسهر على حقوق الناس.

ليس أعظم خيانة ولا أسوأ عاقبة من رجل تولى أمور الناس، فنام عنها حتى أضاعها.

3- ألا تستغل المرأة منصبها الذي عُينت فيه لجر منفعة إلى شخصها أو قرابتها فإن التشبع من المال العام جريمة.

والمعروف أن الحكومات تمنح مستخدميها أجوراً معينة، فمحاولة التزيد عليها بالطرق الملتوية هي اكتساب للسحت.

أما التي تلتزم حدود الله في عملها، وتأنف من خيانة الواجب الذي طوقته فهي عند الله من المجاهدين لنصرة دينه وإعلاء كلمته.

4- أن تنظر إلى حواسك التي أنعم الله بها عليك، وإلى المواهب التي خصك الله بها، وإلى ما حييت من أموال وأولاد، فتدرك أنها ودائع الله الغالية عندك، فيجب أن تسخرها في قرباته، وأن تستخدمها في مرضاته.

5- أن تحفظ حقوق المجالس التي تشارك فيها، فلا تدع لسانها يفشي أسرارها ويسرد أخبارها.

فكم من حبال تقطعت، ومصالح تعطلت، لاستهانة بعض الناس بالأمانة للمجالس، وذكرهم ما يدور فيها من كلام منسوباً إلى قائله، أو غير منسوب.

وحرمات المجالس تصان ما دام الذي يجري فيها مضبوطاً بقوانين الأدب وشرائع الدين، وإلا فليست لها حرمة.

وللعلاقات الزوجية قداسة، فما يضمه البيت من شؤون العِشرة بين الرجل وامرأته يجب أن يطوى في أستار مسبلة، فلا يطلع عليه أحد مهما قرب.

والأمانة تدعو إلى رعاية الحقوق، وتعصم عن الدنايا، لا تكون بهذه المثابة إلا إذا استقرت في وجدان المرء، ورست في أعماقه، وهيمنت على الداني والقاصي من مشاعره.

إن الأمانة فضيلة ضخمة، لا يستطيع حملها الرجال المهازيل، وقد ضرب الله مثلاً لضخامتها، فأبان أنها تثقل كاهل الوجود كله، فلا ينبغي للإنسان أن يستهين بها أو يفرط في حقها.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:72].

32

رقيقة بالناس

من طبيعة المرأة أن تكون رقيقة لطيفة دمثة، ذلك ألين بخلقة المرأة وتكوينها، ومن هنا جاءت تسمية النساء بالجنس اللطيف.

والمرأة المسلمة التي عرفت الإسلام هي أكثر رفقاً بمن في محيطها من النساء، وأشد دماثة ولطفاً في معاشرتهن، لأن اللطف والرفق والأناة خصال يحبها الله في عباده المؤمنين إذ تجعل من تحلى بها قريباً من النفوس محبباً إلى القلوب.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:34-35].

وحسب المرأة أن تعلم أن الرفق من صفات الله تعالى العليا التي أحبها لعباده في الأمور كلها: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله» [متفق عليه، رياض الصالحين، 34].

وإنه لخلق عظيم يثيب الله عليه من عطائه الجزل ما لا يثيبه على خلق آخر: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطى على سواه» [صحيح مسلم، 16/ 146].

ويشيد الهدي النبوي بالرفق، فيجعله زينة كل شيء، ما حل في شيء إلا زانه وحببه إلى الناس، وما نزع من شيء إلا شانه ونفر منه القلوب والأرواح.

«إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه» [صحيح مسلم: 16/ 146].

وكان الرسول ﷺ يعلّم المسلمين الرفق في المعاملة، ويسددهم إلى التصرف اللبق الأمثل الذي يليق بالمسلم الداعية إلى دين الله الرحيم الرفيق بالعباد، مهما كان الموقف مثيراً للحفاظ، داعياً إلى الغضب والاشمئزاز.

فبالرفق والتيسير واللين والسماحة تتفتح مغاليق القلوب، ويدعى الناس إلى الحق، لا بالعنف والتعسير والشدة والزجر، ولهذا كان من هدي الرسول ﷺ : «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا» [متفق عليه، شرح السنّة، 10/ 67]. ذلك أن الناس ينفرون بطبائعهم من الخشونة والفظاظة والعنف، ويألفون الرقة والدماثة واللين والرفق، ويقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:159].

إنه دستور ثابت لكل امرأة مسلمة تصدت لدعوة النساء إلى الهدى إذ عليها أن تحسن الدخول إلى قلوبهن، وتسلك في سبيل ذلك كل أسلوب من أساليب الرفق واللباقة واللين، فالكلمة الطيبة الودود لا بد من أن تأخذ سبيلها إلى متعرجات النفس ومسالكها، ولا بد من أن تحدث أثرها المرجو في نفوس المخاطبات.

ويسمو الهدي الكريم بالإنسان، وهو يغرس خلق الرفق، فأمره بالرفق بالأفراد والأقوام والبيوت كذلك بالحيوان حتى الذبيح، ويعد ذلك من الإحسان أعلى المراتب التي يرقى إليها الأتقياء الصالحون.

ذلك أن الرفق بالحيوان الذبيح على رقة نفس الإنسان الذي يذبحه، وعلى تمثلها الرحمة بكل ذي روح، ومن وقرت في نفسه هذه المعاني في معاملته لذوي الأرواح، كان بالإنسان أرفق وألطف.

قال رسول الله ﷺ : «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته» [صحيح مسلم، 13/ 106]. وتستطيع المرأة المسلمة أن تتصور مدى سمو توجيهات الإسلام لبني الإنسان بالرفق، حتى إنها لتشمل الرفق بالحيوان.

33

رحيمة

والمرأة المسلمة التي ارتوت نفسها من هدي دينها السمح رحيمة، تتفجر ينابيع الرحمة والحنان من قلبها الكبير ونفسها الطيبة، إذ تدرك أن رحمتها من حولها مِن الناس سبب لانسكاب الرحمة عليها من السماء، وأن من لا يرحم الناس لا تناله رحمة من الله، وما حجبت الرحمة عن إنسان إلا كان من زمرة الأشقياء، المحرومين الخاسرين، كما جاء في هدي الرسول ﷺ : «ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء» [رواه الطبراني].

«من لم يرحم الناس لم يرحمه الله» [رواه الطبراني].

«لا تنزع الرحمة إلا من شقى» [أخرجه البخاري في الأدب المفرد، 1/ 466].

ولا تقتصر الرحمة في نفس المرأة المسلمة على أهلها ووالديها وأولادها ورحمها بل تتسع دائرة الرحمة في نفسها حتى تشمل عامة الناس، بل إن الإسلام جعلها شرطاً من شروط الإيمان: «لن تؤمنوا حتى تراحموا، قالوا: يا رسول الله، كلنا رحيم، قال: إنه ليس برحمه أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة الناس، رحمة العامة» [رواه الطبراني].

إنها الرحمة العامة الشاملة، فجر ينابيعها الإسلام في قلب المسلمين والمسلمات، وجعلها صفة من صفاتهم المميّزة، ليغدو المجتمع الإسلامي برجاله ونسائه، وأغنيائه وفقرائه، وسائر أفراده، مجتمعاً متكافلاً متراحماً، تموج الرحمة في جنباته، تشيع الأخوة في أرجائه، ويسود التعاطف أجواءه.

لقد وسع الرسول الكريم دائرة الرحمة في نفوس المسلمين والمسلمات إذ جعلها لا تقتصر على رحمة الإنسان بل تشمل الحيوان.

روى الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً، فدخلت فيها النار. قال: فقالوا والله أعلم: لا أنتِ أطعمتها ولا سقيتها حين حبستيها، ولا أنتِ أرسلتها، فأكلت من خشاش الأرض» [متفق عليه، شرح السنّة، 6/ 171].

لقد أراد الرسول ﷺ بتوجيهه الكريم أن يغرس في نفوس المسلمين والمسلمات رحمة للإنسان والحيوان، وكان لا يفتأ في كثير من توجيهاته السامية يرغّب بالرحمة بين الناس، ويعمقها في نفوسهم، مؤكداً أنها مفتاح رحمة الله بعباده، وسبب من أسباب صفحه ومثوبته ومغفرته للرحماء ولو كانوا من العصاة المذنبين.

34
تعمل على نفع الناس ودفع الضر عنهم

تحرص المرأة المسلمة على أن تكون عنصر بناء ونفع وخير لا لنفسها فحسب، بل للناس جميعاً، فهي تفتش دوماً عن فرص عمل الخير، وتبادر إلى فعله، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً بقوله تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ [الحج:77].

إنها لتدرك أن فعل الخير للناس عبادة، ما دامت تبتغي به وجه الله تعالى، وأبواب فعل الخير مفتحة أمام المسلمين جميعاً، يستطيعون أن يلجوها متى شاؤوا، فيفوزوا برحمة من الله ورضوان، ووجوه البر والخير والمعروف كثيرة متعددة، ومساحاتها واسعة رحيبة، وأي عمل خير يحتسبونه لله يُسجل لهم صدقة في سجل أعمالهم.

«كل معروف صدقة» [متفق عليه، شرح السنّة، 6/ 142].

«والكلمة الطيبة صدقة» [متفق عليه شرح السنّة، 6/ 145].

بل إن رحمة ربك الواسعة تشمل كل مسلمة صفتْ سريرتها، وأخلصت نيتها لله فتدركها إن عملت خيراً، وإن لم تعمل خيراً، شريطة أن تنوي الإمساك عن الشر.

فعن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: «على كل مسلم صدقة»، قالوا: يا رسول الله أرأيت إن لم يجد؟ قال: «يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق»، قالوا:

أرأيت إن لم يستطع أو لم يفعل، قال: يعين ذا الحاجة الملهوف، قالوا: «أرأيت إن لم يفعل؟ قال: يأمر بالمعروف أو بالخير، قالوا: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: يمسك عن الشر فإنها له صدقة» [متفق عليه، شرح السنّة، 6/ 143].

لقد استهل الرسول ﷺ حديثه بقوله: «على كل مسلم صدقة» ثم راح يعدد ألوان البر والخير والمعروف التي يستطيع كل مسلم ومسلمة أن يجني منها أجور تلك الصدقات، فالمرأة المسلمة إذاً عليها صدقة، أي: عليها أن تقوم بالأعمال البناءة الخيّرة في مجتمعها، فإن عجزت، أو لم تفعل لسبب من الأسباب، فلا أقل من أن تكف لسانها وجوارحها عن فعل الشر، ففي ذلك أيضاً صدقة، وإيجابيات المسلمين وسلبياتهم كلها موجهة في خدمة الحق الذي يسود مجتمع المسلمين، والإنسان المسلم: «من سلم المسلمون من لسانه ويده» [فتح الباري، 1/ 53].

ومن هنا تتطلع المرأة المسلمة دوماً إلى فعل الخير، وتسعى إليه، وترجو أن يتم على يديها، وتعرض عن الشر، وتتجنبه، وتصمم على ألا تتورط فيه.

والمرأة المسلمة التي وعت إسلامها، وارتوت من معين هديه الطهور، من الصنف الذي يرجى خيره، ويؤمن شره، وإنها إذ تقبل على فعل الخير في الدنيا توقن أن جهدها لن يضيع، وأن مسعاها لن يخيب، وأن معروفها ستكافأ عليه في الدنيا والآخرة.

«من نفّس عن مؤمن كربةً من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة» [صحيح مسلم، 17/ 21].

ولا تألو المرأة المسلمة جهداً في فعل الخير متى قدرت عليه، وكيف لا تكون كذلك، وإنها لتعلم من هدي الرسول ﷺ أن التقاعس عن فعل الخير مع القدرة عليه مهدد بزوال النعم.

ولا تحقر المرأة المسلمة عمل الخير مهما صغر، ما دامت تصحبه النية الصادقة والإخلاص لله تعالى فيه، وقد يكون فعل الخير في دفع الأذى عن المسلمين والمسلمات وهذا ما صورته بعض الأحاديث تصويراً رائعاً، ومنها قوله ﷺ: «لقد رأيت رجلاً يتقلّب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق، وكانت تؤذي الناس» [صحيح مسلم، 16/ 171].

إن للخير وجهين، على المسلمين والمسلمات أن يعملوا فيهما، ويتسابقوا إلى مرضاة الله عز وجل بفعلهما، تقديم الخير والنفع للناس، ودفع الأذى والضر عنهم.

ذلك أن دفع الأذى والضر عن المسلمين لا يقل عن تقديم الخير والنفع لهم، فكلاهما من العمل الصالح الذي يؤجر فاعليه ويثاب عليه، والمجتمعات في كل زمان ومكان بحاجة إلى العملين معاً، إذ بهما يشيع الخير والمعروف في المجتمع، وتتوطد أواصر المودة بين أفراده، ويحسون بجمال الحياة وهناءة العيش، وهذا ما يهدف الإسلام إلى تحقيقه من حضّه الدائم على تقديم الخير والنفع للناس، ودفع الضر عنهم.

إن الإنسانية اليوم لفي أمسّ الحاجة إلى هذا المجتمع المهذب الراقي الذي يبنيه الإسلام؛ ففيه يحس كل فرد أن مشاركته في فعل الخير وترقيته المجتمع تقرّبه من الله، وتدخله الجنة، ولو لم يَعْدُ عمله أن يكون إماطة الأذى عن الطريق، وشتان بين مجتمع يصوغ مثل هذه النفوس الحساسة التي لا تطيق أن ترى التفلّت والتخلّف واللامبالاة في المجتمع، وبين مجتمع لا يعبأ بصياغة نفوس أفراده، فتراهم لا يبالون بإلقاء الأذى والفضلات والقاذورات في الطريق غير عابئين بإيذاء الناس، فتضطر السلطة في هذا المجتمع المتفلت إلى إصدار القوانين والأنظمة التي تعاقب المخالفين.

وما أعظم الفرق بين مجتمع اهتدى بهدي هذا الدين، فسارع الأفراد فيه لإماطة الأذى عن الطريق امتثالاً لأمر الله، وطمعاً في مثوبته، وبين مجتمع شرد عن هدي الله، فإذا أفراده لا يبالون على من تسقط فضلاتهم التي يلقونها من فوق الشرفات والنوافذ وأسطحة المنازل !

35

تنفّس عن المعسرة

تتميّز المرأة المسلمة بصيغة تكوينها الخلقي والنفسي، وتتسم شخصيتها بالتسامح والخلق الرضي، وحسن المعاملة، فإذا ما كان لها حق على أختها وأزف موعد أدائه، وكانت الأخت المدينة معسرة، أنظرتها إلى أجل آخر، حتى تذهب عسرتها، وتخرج منها إلى ميسرة عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة:280].

ذلك إن إنظار المعسر خلق كريم، حض عليه الإسلام، لأن فيه تحقيقاً لإنسانية الإنسان في تعامله مع أخيه الإنسان، ولو كان صاحب حق.

والمرأة المسلمة إذ تتمثل هذه المعاني الإنسانية السامية في إنظارها أختها المعسرة إنما تمثل أمر ربها، وتقدم بين يديها عملاً صالحاً، ينجيها من كرب يوم القيامة، ويظلها بظل العرش العظيم، يوم لا ظل إلا ظله.

عن أبي قتادة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، فلينفس عن معسر أو يضع عنه» [صحيح مسلم، 10/ 227] وتستطيع المرأة المسلمة أن تسمو في هذه المعارج الوضاء إن كانت موسرة ذات سعة، فتتنازل لأختها المدينة عن الدَّيْن، أو عن جزء منه، فتعفيها من أدائه، فتظفر بثواب عظيم، إذ يعوضها الله بتجاوزها عن دَيْن أختها تجاوزاً أكبر وأغنم وأعظم، ويجبر تقصيرها، ويقيلها زلتها، وينجيها من هول يوم القيامة.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «كان رجل يداين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا جئت معسراً فتجاوز عنه لعل الله يتجاوز عنا، فلقي الله فتجاوز عنه» [متفق عليه، شرح السنّة، 8/ 169].

36

كريمة سخية

ومن صفات المرأة المسلمة الملتزمة بأحكام دينها، المتخلقة بأخلاقه السمحة الغراء: السخاء، والجود، والكرم والبذل، فهي كريمة، يداها مبسوطتان للمعسرين وذوي الحاجة، تهيان بالعطاء، وتسحّان بالخير، كلما دعا الداعي إلى البذل، وجاءت مناسبة تحمد فيها السخاء.

وهي واثقة كل الثقة أن ما تقدم من خير لن يضيع عند الله، بل هو باقٍ محفوظ لدى حكيم عليم.

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:273].

وإنها لمؤمنة كل الإيمان أن ما تنفقه من خير لن يضيع عند الله، سيعوضها الله عنه أضعافاً مضاعفة؛ إذ تفوز بشرف عظيم في الدنيا وثواب عميم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:261].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ:39].

وإنها لتدرك أيضاً أنها إن لم توق شح نفسها، وغلبها حرصها على جمع المال وكنزه، فستصاب بتلف مالها ونقصانه وتبديده، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ : «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم

أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» [متفق عليه، شرح السنّة، 6/ 155]. والمرأة المسلمة الصادقة توقن أن إنفاقها المال في سبيل الله لا ينقص من مالها شيئاً بل ينميه ويزكيه ويباركه، إذ أكد ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «ما نقصت صدقة من مال...» [صحيح مسلم، 16/ 141].

بل إنها لتعتقد أن ما أنفقت من مال في سبيل الله هو الباقي حقيقة، لأنه سجّل في صحيفة عملها، وما عداه زائل، وقد لفت رسول الله ﷺ نظر المسلمين والمسلمات إلى هذا المعنى الرفيع في البذل والسخاء والجود حين سأل السيدة عائشة رضي الله عنها عما بقي من الشاة المذبوحة: «ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها، فقال: بقي كلها غير كتفها» [رواه الترمذي، 4/ 644].

لهذا كله كانت المرأة المسلمة البصيرة بأحكام دينها مسارعة إلى البذل، مندفعة إلى العطاء، سباقة إلى الجود بما تصل إليها يدها من ممتلكات، متى سمعت دعوة الداعي إلى البذل والعطاء.

ولقد ضربت أمهات المؤمنين ونساء السلف الصالح المثل الأعلى في السخاء والجود والبذل، وسجل التاريخ لهن ذلك بأحرف من نور.

فما رواه الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء، في ترجمته لأم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها: أنها تصدقت بسبعين ألف درهم، وإنها لترقع جانب درعها.

وبعث معاوية إليها بمئة ألف درهم، فما أمست حتى فرقتها، فقالت لها مولاتها: لو اشتريتِ لنا منها بدرهم لحماً، فقالت: ألا قلت لي.

ومن النساء اللواتي شهد التاريخ بجودهن وسخائهن: سكينة بنت الحسين التي كانت تجود بما ملكت يداها، فإن لم تجد المال نزعت من معصمها الحلي وقدمته للمحرومين، ومنهن عاتكة بنت يزيد بن معاوية، التي نزلت عن مالها كله لفقراء آل أبي سفيان.

37

لا تمن على من تعطيهم

إذا ما وفّق الله المرأة المسلمة السمحة الجواد يوماً للعطاء، والبذل في سبيل الله فإنها لا ترتكس في مستنقع المن والأذى، بل تحرص على أن يكون عطاؤها نقياً خالصاً لوجه الله، وتكون ممن صح فيهم قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:262].

ولا يخفى عن المرأة المسلمة المستنيرة بهدي دينها أن لا شيء يمحق ثواب الصدقة مثل المن والأذى، بل إن نداء الله تبارك وتعالى للمؤمنين والمؤمنات بالنهي والتحذير من المن المحبط للعمل، الماحق أجر الصدقة ليملأ سمعها، ويهز كيانها ويجعلها لا تفكر في كلمة فيها رائحة من مَنّ أو أذى.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة:264].

إن المن على الإنسان الفقير الذي ألجأته الحاجة إلى الأخذ إهانة لإنسانيته، وامتهان لكرامته، وحط من قدره، وهذا كله محرّم في شرعة الإسلام التي تعدّ المعطي والآخذ أخوين لا فرق بينهما إلا بالتقوى والعمل الصالح، والأخ لا يمنّ على أخيه، ولا يؤذيه في نفسه وكرامته، ومن هنا اشتد الوعيد للمنان في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي ذر، إذ صنّفه رسول الله ﷺ في زمرة الأشقياء الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم،

قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم
عذاب أليم، قرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال أبو ذر: خابوا وخسروا،
من هم يا رسول الله ؟ قال: المُسبل والمنان، والمنفق سلعته بالحلف والكذب»
[صحيح مسلم، 2/ 114].

38

حليمة

والمرأة المسلمة الراشدة التي ارتوت نفسها من نبع الإسلام الفياض، تأخذ نفسها بالحلم، وتروضها على كظم الغيظ، وتدربها على العفو والدفع بالتي هي أحسن عملاً بقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:134].

ذلك أن ضبط النفس عند الغضب، وأخذها بالحلم والأناة وكظم الغيظ من أجمل خلائق المسلمين والمسلمات التي يحبها الله لعباده المؤمنين، وهذا ما أكده رسول الله ﷺ في الحديث الذي يرويه ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة» [صحيح مسلم: 1/ 189].

ومن هنا كانت توصية الرسول ﷺ للرجل الذي جاءه يستوصيه كلمة واحدة: «لا تغضب» وردد الرجل مراراً قوله: أوصني، وكان جواب الرسول الكريم ﷺ في كل مرة هذه الكلمة الجامعة لمكارم الأخلاق «لا تغضب» [فتح الباري، 10/ 519].

إن المرأة المسلمة قد تغضب أحياناً ولكن غضبها يكون لله، لا لنفسها إنها لتغضب حينما تجد في المجتمعات النسائية استهتاراً بقيم الإسلام وتحللاً من تعاليمه وأحكامه، وجرأة وقحة على الدين، وحق لها في مثل هذه المواقف أن تغضب، وهذا ما كان عليه رسول الله ﷺ فيما يرويه البخاري ومسلم عنه «ما

انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها» [فتح الباري، 6/ 566] [صحيح مسلم، 15/ 83].

لقد كان صلوات الله عليه يغضب ويتلون وجهه الشريف حين يجد إساءة لسمعة الدين أو خطأً في تطبيق أحكامه، أو تساهلاً في إقامة حدوده.

غضب يوم جاءه رجل فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا، فلم يرَ النبي الكريم ﷺ غَضِبَ في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ فقال: «يا أيها الناس، إن منكم منفّرين، فأيكم أمّ الناس فليجز، فإن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة» [متفق عليه، شرح السنّة، 3/ 409].

وغضب يوم قدم من سفره على عائشة فرأى في بيتها ستراً رقيقاً فيه تماثيل فلما رآه هتكه وتلوّن وجهه، وقال: «يا عائشة أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله» [متفق عليه، شرح السنّة، 12/ 129].

وهكذا كان الغضب عند رسول الله ﷺ ، وهذه هي مسوغاته في شرعة الإسلام أن يكون لله لا للنفس.

والمرأة المسلمة الواعية هدي دينها، المتأسية بأخلاق الرسول ﷺ تضع نصب عينيها توجيهاته وتصرفاته وأفعاله، فتملك نفسها عند الغضب من الناس، ولا يكون غضبها إلا لله ولدينه ولحرماته.

39

متسامحة لا تحقد ولا يوجد عندها ضغينة

لا تحمل المرأة المسلمة الحقد، ولا تعرف الضغينة إلى قلبها سبيلاً، ذلك أن الإسلام العظيم استلّ من قلبها سخيمة الحقد، وأطفأ نار الضغينة، وطهّر نفسها من الغل، وزرع فيها بذور الإخاء والود والتسامح والعفو والمغفرة.

لقد أعلنها الإسلام حرباً لا هوادة فيها على الجهالة والعصبية والحقد والثأر والعداوة والانتقام، وحبب إلى نفوس المسلمين والمسلمات العفو والصفح والتواد والإحسان، فقال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:134].

إنها الإشادة بالكاظمين الغيظ الذين لم يحقدوا ولم يضغنوا، بل ارتفعوا إلى أفق العفو والتسامح والغفران، وإنه لأفق عالٍ وضيء ومرتقى سام صعب، لا يستطيع بلوغه إلا من صفت أنفسهم ونبذت نزعة العدوان والانتقام والكراهية والحقد، فاستحقوا بذلك أن يبلغوا مرتبة الإحسان، والله يحب المحسنين.

ولقد استطاع الإسلام بهذا الهدي الرفيع أن يتغلغل في أعماق النفوس، فيطهرها وينقيها، ويحول القلوب التي رانت عليها العداوة والحقد إلى قلوب تخفق بالمحبة والنصر والولاء.

ومن أبرز الشواهد على ذلك التحول العجيب ما طرأ على قلب هند بنت عتبة، فقد كان قلبها قبل الإسلام مفعماً بسموم الحقد ونيران العداوة لرسول الله ﷺ وآل بيته وصحبه، حتى إن رسول الله ﷺ أهدر دمها يوم فتح مكة جزاء

تمثيلها بجثمان عمه حمزة ﷺ يوم أحد، فلما أسلمت وتغلغل الإسلام في مسارب نفسها، جاءت رسول الله ﷺ تقول: «يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إليّ أن يذلّوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يعزوا من أهل خبائك» [فتح الباري، 7/ 141].

ففي سبيل الله، وفي سبيل دينه الحق، تغسل الدماء، وتزول الوحشة، وتأتلف تواتر القلوب، وتجتث نزعة الحقد.

لقد سلك القرآن الكريم أبرع الأساليب في رفع النفس الإنسانية إلى ذلك المرتقى العالي الصعب، إذ قرر أن من أصابه البغي له أن ينتصر لنفسه ويرد عنها العدوان، لأن جزاء السيئة سيئة مثلها، ولكنه لم يدع للإنسان المعتدى عليه لعاطفة التشفي والانتقام، وإنما أخذ بيده برفق إلى مرتقى العفو والتسامح إذ قرر أنه من عزم الأمور.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى:39-43].

إن المجتمع الرباني القائم على أخوة الإيمان لا تقوم المعاملة بين أفراده على المحاسبة ورصد الأخطاء والانتقام والانتصار للذات، وإنما تقوم على التآخي والتغاضي والتسامح وتناسي الأخطاء، وهذا ما دعا إليه الإسلام وحضت عليه أخوة الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:34-35].

أن تدفع المرأة السيئة بالحسنة، فتقلب العداوة صداقة، والكراهية محبة، ولا تنال هذا الفوز العظيم إلا صاحبة الحظ العظيم الذي أشارت إليه الآية الكريمة، بشيء من الصبر وضبط الأعصاب، ومقابلة السيئة بالتي هي أحسن.

هذا هو خلق المؤمنات الصادقات في المجتمع المسلم الذي قام على المحبة والتواد والتسامح، وتضافرت نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف على تأصيله في النفوس، وتدريبها دوماً على الصفح الجميل الذي لا يترك وراءه أثراً لضغينة أو حقد أو كراهية.

قال تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر:85].

كان صلوات الله عليه يتمثل توجيه رب العزة له، قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:199].

40

ميسّرة غير معسّرة

المرأة الواعية هدي دينها ميسرة غير معسرة؛ لأن التيسير هو الخلق الأفضل الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى لعباده المؤمنين.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:185].

ومن هنا جاء الهدي النبوي الكريم حاضاً المسلمات على التيسير ناهياً إياهم عن التعسير: «علموا ويسروا ولا تعسروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت» [صحيح مسلم، 15/ 84].

إن التي تلجأ للتعسير وتعقيد الأمور بعد أن استبان لها هدي الإسلام ليست امرأة سوية، فمن تلجأ إلى التعسير، وقد حبَّب الشرع الحنيف إليها التيسير، هي امرأة في خلقها التواء، وفي نفسيتها تعقيد، وفي شخصيتها خلل وفي تربيتها نقص.

أما المرأة المسلمة السوية الطائعة ربها المتمثلة هدي دينها، فلا تعرف التعسير ولا التعقيد، ولا تلجأ إلى عرقلة الأمور وتصعيدها، مستهدية في ذلك بخلق الرسول الكريم ﷺ الذي أخبرت به أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها: «ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ نفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى» [متفق عليه، شرح السنّة، 13/ 260].

والمرأة المسلمة الواعية وقّافة عند هدي الرسول ﷺ لا تتعداه ولا تخالف أمره.

41
لا تحسد

وما أكثر ما تقع المرأة العادية في الحسد، إذ ترى كثيرات ممن هن دونها جمالاً وعلماً وعقلاً، قد غرقن في الثراء والنعمة والنعيم، ولم تحظ هي بقليل مما في حياتهن وأيديهن، ولكن المرأة المسلمة الرشيدة بمنجاة من هذا المنزلق الخلقي، بما لقنت من أحكام دينها الذي علّمها أن كل شيء في الحياة يجري بقضاء الله وقدره، وأن متاع الحياة الدنيا مهما بلغ فهو قليل، بجانب ما أعده الله للمؤمنات القانعات الراضيات بما قسم الله لهن، وأن قيمة المرأة الحقيقية يرجحان كفتها في ميزان التقوى والعمل الصالح، وليس فيما حازته من أعراض الحياة الدنيا المؤقتة الزائلة، وكلما تعززت هذه القيم في نفس المرأة ازدادت نفسها صفاءً ونقاءً وطمأنينة، وكانت من أهل الجنة الفائزات برضوان ربها، ولو لم تكن من المكثرات من العبادة.

سئل رسول الله ﷺ عن امرأة تقوم الليل تصوم النهار، ولكنها تؤذي جيرانها فقال: «لا خير فيها، هي من أهل النار» [أخرجه البخاري، 1/ 210].

ذلك أن الإنسان الذي ترجح كفته دوماً في ميزان الإسلام هو الإنسان الذي صفت سريرته ونقيت نفسه من الغل والحقد والحسد والضغينة ولو قلّت عبادته.

أما الإنسان الذي يكثر من العبادة ونفسه مليئة بمشاعر الغيظ والحسد والغل، فإن عبادته آلية شكلية، لم تستند إلى قاعدة صلبة من الإيمان، ولذلك لم تحدث أثراً في تنقية نفسه من الحسد الذي أخبر الرسول الكريم ﷺ أنه لا

يجتمع والإيمان في قلب الإنسان: «لا يجتمع في جوف عبد الإيمان والحسد» [رواه ابن حبان (10/ 466)، كتاب السير]. وعن ضمرة بن ثعلبة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا» [رواه الطبراني، مجمع الزوائد، 8/ 78].

والمرأة المسلمة الواعية الحصينة هي التي تجمع بين حُسْن العبادة وصفاء النفس من كدر الحسد وأوشاب الغل وعكر الضغينة، وبذلك تسمو المرأة إلى أعلى مراتب التقوى فتنال عند ربها الدرجات العلى، وتفوز في دنياها بحب الناس وتقديرهم.

42

بِرّة بوالديها عارفة قدرهما

من أبرز ما تتميّز به المرأة المسلمة الراشدة برّها بوالديها والإحسان إليهما ذلك أن الإسلام حض على بر الوالدين في عديد من النصوص القاطعة في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وكل مسلمة تطالع هذه النصوص لا يسعها إلا الالتزام بهديها، والمسارعة إلى بر الوالدين، مهما تكن الظروف والأحوال، ومهما تكن العلاقة بين الفتاة ووالديها.

إنها تدرك من تلاوتها لكتاب الله عز وجل المرتبة العالية التي رفع الله الوالدين إليها، وإنها لمرتبة ما عرفها البشر إلا في هذا الدين، إذ جعلها تلي مرتبة الإيمان بالله والعبودية له.

فقد تتابعت آيات الكتاب الكريم واضعة مرضاة الوالدين بعد مرضاة الله عز وجل، وجاعلة الإحسان إليهما رأس الفضائل بعد الإيمان بالله.

﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ [النساء:36].

من هنا كانت الفتاة المسلمة الواعية هدي دينها أبر بوالديها من أي فتاة في الوجود إذ لا يتوقف برّها لوالديها عند انتقالها إلى عش الزوجية بل يستمر برّها لوالديها ما تنفس بها العمر وامتدت بها الأيام، عملاً بهدي القرآن الكريم الموصي بالوالدين حتى آخر العمر، وبخاصة عندما يدلفان إلى الشيخوخة ويصلان مرحلة العجز والهرم، ويحتاجان إلى الخلق الراقي والبسمة الحانية والكلمة الودودة، قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ

إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء:23-24].

والمرأة المسلمة الداعية التي استنارت بصيرتها بنور القرآن تتلقى دوماً مثل هذا الإيقاع الرباني الجميل، كلما تلت الآيات الموصية بالوالدين، فتزداد بِرّاً بهما، وإحساناً إليهما، وإقبالاً على خدمتهما، وتفانياً في التماس رضاهما، ولو كان لها زوج وبيت وأولاد ومسؤوليات.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [النساء:36].

قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ ﴾ [العنكبوت:8].

وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [لقمان:14].

والباحث المتأمل في النصوص الواردة في بر الوالدين يجد الأحاديث الشريفة مواكبة الآيات الكريمة، مؤكدة فضل بر الوالدين، محذرة من عقوقهما أو الإساءة إليهما مهما تكن الأسباب.

فعن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: سألت النبي ﷺ : أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله» [متفق عليه، شرح السنة، 2/ 176].

لقد جعل الرسول المربي بر الوالدين بين أعظم عملين في الإسلام الصلاة على وقتها والجهاد في سبيل الله، والصلاة عماد الدين والجهاد ذروة سنام الإسلام، فأي مقام جليل أحل الرسول ﷺ الوالدين؟

وفي رواية للشيخين: جاء رجل فاستأذن الرسول ﷺ في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك»؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد» [رواه الشيخان، رياض الصالحين 191، باب بر الوالدين].

43

مطيعة لزوجها

الزواج في الإسلام عقد مبارك بين الرجل والمرأة يحل به كل منهما للآخر ويبدآن به رحلة الحياة الطويلة، متحابين متعاونين متآلفين متسامحين، سكن كل منهما إلى الآخر، فيجد في صحبته السكينة والأنس والأمن والطمأنينة ولذة العيش، وقد صوّر القرآن الكريم هذه العلاقة الشرعية السامية بين الرجل والمرأة تصويراً رائعاً، يشيع فيه ندى المحبة والألفة والتفاهم والرحمة. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم:21].

إنها الصلة الربانية في أوثق وشائجها يعقدها رب العزة بين نفسي الزوجين، والمرأة الصالحة عماد الأسرة المسلمة، وهي متعة الحياة الأولى في حياة الرجل بل هي خير متاع له في الحياة، كما قال الرسول ﷺ : «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة» [صحيح مسلم، 10/ 56].

إنها نعمة الله الكبرى على الرجل إذ يسكن إليها من لأواء العيش ولغوب الكدح والنصب، فيجد عندها الراحة والسلوى والسكينة والمتاع الذي لا يدانيه في حياة الإنسان متاع.

فكيف تكون المرأة خير متاع في الحياة، وزوجة ناجحة في علياء أنوثتها محببة مكرمة.

لقد كان من تكريم الإسلام للمرأة أن أعطاها حق اختيار الزوج فليس للوالدين أن يكرها ابنتهما على زواج لا تريده، والمرأة المسلمة تعرف هذا الحق،

ولكنها لا تستغني عن نصح والديها إلى ما فيه مصلحتها عندما يتقدم إليها خاطب، لأنهما أوسع منها خبرة بالحياة والناس، وفي الوقت ذاته لا ترضى أن يُسلب منها هذا الحق.

لقد وجهها رسول الله ﷺ في أول الأمر لتنفيذ أمر والدها، لما هو معروف من حرص الآباء على سعادة بناتهم، ولكنه لما رأى أباها يريد إكراهها على زواج تكرهه، أعطاها حرية اختيار الزوج، وأنقذها من تعسف الأب الظالم لابنته في إكراهها على زواج لا ترتاح نفسها إليه.

إن الإسلام لا يحمل المرأة مشقة، ولا يرضى لها أن تعيش في صحبة رجل تكرهه، لأنه يريد للزواج أن يكون ناجحاً مبنياً على أسس متينة من الكفاءة بين الزوجين في المظهر والمخبر والتقارب والأمزجة والعادات والميول والأهداف، فإذا حدث خلل في بناء صرح الزوجية، ولم يطب العيش بين الزوجين، وأحست المرأة أنها لا يمكن أن تعطي زوجها الحب والوفاء وخشيت على نفسها من الوقوع في إثم العقوق ومخالفة الزوج الذي لا تحبه فلها أن تطلب الطلاق، وهذا ما أقره الرسول ﷺ ، إذ جاءته امرأة ثابت بن قيس بن شماس، جميلة أخت عبدالله بن أبي فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال ﷺ : «أتردين عليه حديقته» - وكان مهرها حديقة - قالت: نعم، فأرسل رسول الله ﷺ : «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة» [فتح الباري، 9/ 395].

لقد صان الإسلام إنسانية المرأة وحفظ كرامتها واحترام إرادتها في اختيار الرجل الذي ستقضي معه حياتها ولم يرض لأحد كائناً من كان أن يكرهها على الزواج من رجل لا تريده.

وللمرأة المسلمة الحكيمة في اختيار الزوج، فهي لا تكتفي بجمال الهيئة وأناقة المظهر، وما إلى ذلك من صفات تستهوي النساء، وإنما تقف عند دينه

وخلقه، فهما عماد بيت الزوجية الناجح، وأثمن حلية يتحلى بها الزوج، وقد نص هدي الإسلام الحنيف على لزوم هاتين الصفتين في الخاطب، فإذا ما توافرتا فيه وجب تزويجه، وإلا عمت الفتنة في المجتمع وساد الفساد.

«إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» [رواه الترمذي، 2/ 274].

الفتاة المسلمة الواعية الراشدة لا يستهويها الشاب اللاهي المائع الأرعن، ولو حسن مظهره وراقت هيئته، وإنما يعجبها الشاب المؤمن الجاد، الواعي المتفتح الذهن، النقي السريرة، فالفتاة المؤمنة الطيبة لا يليق بها إلا الشاب المؤمن الطيب، والفتاة الخبيثة الضالة لا يليق بها إلا الشاب الخبيث الضال.

وليس معنى هذا أن تهدر المرأة المسلمة جمال الشكل وحسن الهيئة وترضى بالقبح والدمامة، فمن حقها أن تظفر بالرجل الذي يملأ نفسها ويرضي أحاسيسها ومشاعرها، في شكله ومضمونه على السواء، فلا يهدر الشكل على حساب المضمون، ولا المضمون على حساب الشكل.

وإذا ما تم الزواج وشهد على الزواج أخوات لها فليقلن: بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما على خير، ويستحب إظهار النكاح بضرب الدفوف وإعلانه في المساجد، حيث قال ﷺ : «أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا على الدفوف» [رواه الترمذي].

وللنساء أن يضربن على الدف ويقلن قولاً معروفاً، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه دخل على غداء فرح فجلس على فراش والجويريات يضربن بدفوفهن. [رواه البخاري].

قال ابن عباس رضي الله عنهما «أتت امرأة من خثعم إلى رسول الله ﷺ ، فقالت: إني امرأة أيم وأريد أن أتزوج فما حق الزوج؟ قال: إن من حق الزوج على الزوجة

إذا أرادها فراودها عن نفسها وهي على ظهر بعير لا تمنعه، ومن حقه أن لا تعطي شيئاً من بيته إلا بإذنه، فإن فعلت ذلك كان الوزر عليها، والأجر له، ومن حقه أن لا تصوم تطوعاً إلا بإذنه، فإن فعلت جاعت وعطشت ولم يتقبل منها، وإن خرجت من بيتها من غير إذنه لعنتها الملائكة حتى تعود إلى بيته أو تتوب» [أخرجه البيهقي].

ومن طاعة الزوج وبرّه، ألا تصوم زوجته في غير رمضان إلا بإذنه ولا تأذن لأحد بدخول بيته إلا بإذنه ورضاه، ولا تنفق من كسبه إلا بإذنه، فإن أنفقت من غير أمره، فإن نصف أجر النفقة له، والمرأة المسلمة الواعية تتقيد بهذا الحكم الشرعي الذي قرره الرسول الكريم ﷺ بقوله: «لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، وما أنفقت من نفقة من غير أمره فإنه يؤدّى إليه شطره» [صحيح مسلم، 7/ 115].

والمعول في هذا كله الحصول على إذن الزوج ورضاه، فلا يكون لها أجر، بل عليها وزر، وإذا ما أرادت أن تنفق من ماله في غيابه، وعلمت أنه إذا اطلع على نفقتها أذن بها ورضي، جاز لها، وإلا فلا يجوز.

ذلك أن التفاهم والانسجام بين الزوجين لا يتحققان إلا في التنسيق بينهما في مثل هذه الأمور، بحيث لا يلحق أحد الطرفين ضرر أو إزعاج أو مضايقة مما يفسد صفاء الحياة الزوجية التي بناها الإسلام على المودة والرحمة، وأراد لها دوام الصفاء والرعاية والانسجام.

أما إذا كان الزوج بخيلاً، يقتر عليها وعلى أولادها في النفقة، فلها أن تنفق من ماله على نفسها وعيالها بالمعروف، ما يكفيهم بغير علمه، قد صرّح بذلك رسول الله ﷺ لهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، إذ جاءته فقالت له: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي، إلا

ما أخذت منه، وهو لا يعلم. فقال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف» [متفق عليه، شرح السنّة، 9/ 227].

وبذلك جعلها الإسلام مسؤولة عن حسن تصرفها في إدارة شؤون بيتها. والمرأة المسلمة الحصيفة تدرك مسؤوليتها التي كلفها بها الإسلام من رعاية بيت زوجها، إذ جعلها راعية على بيت زوجها وولده، وخصها بالذكر في المسؤولية تقديراً منه لها في تحمّلها هذه المسؤولية، وذلك في الحديث المتفق عليه الذي جعل الرسول فيه كل فرد في المجمع الإسلامي مسؤولاً عما في حوزته وتحت إدارته، بحيث لا يفلت من قبضة المسؤولية أحد، سواء أكان رجلاً أم امرأة.

قال رسول الله ﷺ : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته، فكلكم راعٍ ومسؤول في رعيته» [متفق عليه، شرح السنّة، 10/ 61].

والمرأة المسلمة الصادقة تتصف دوماً بالحنان على أولادها، وبالرعاية لزوجها، وهما صفتان جميلتان من أجمل ما تتجمل به المرأة في كل زمان ومكان، وقد أشاد بهما الرسول الكريم ﷺ مجسّدتين في نساء قريش، اللواتي يمثلن ذؤابة نساء العرب في الحنو على الأولاد، ومراعاة حق الزوج في ماله وحفظه والأمانة فيه وحسن تدبيره في النفقة، وصيانته من الضياع: «خير نساء ركن الإبل نساء قريش، وأحناه على ولدٍ في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده» [صحيح مسلم: 16/ 81].

إنها لشهادة ثمينة من الرسول ﷺ تطوّق أعناق نساء قريش بقلادة من الفضائل النفيسة التي تزيدهن جمالاً وفضلاً وتألقاً، وفي هذه الشهادة دعوة لكل امرأة مسلمة أن تكون مثلهن في حنوها على أولادها وفي رعايتها لزوجها.

وإنه لشرف عظيم للمرأة أن تحف زوجها وتهتم بشؤونه وترعاه، في مصبحه وممساه، في متقلبه ومثواه، وتعطيه من ذوقها ورقتها وأنسها ما يملأ حياته بشراً وسعادة وطمأنينة وأمناً.

وللمرأة المسلمة في السيدة عائشة أم المؤمنين أسوة حسنة، إذ كانت ترافق الرسول ﷺ في حجه، وتحيطه بعنايتها ورعايتها، فتطيبه قبل إحرامه، وبعد إحلاله قبل أن يطوف طواف الإفاضة، تطيبه بيدها وتتخيّر له أطيب ما تجد من الطيب، وقد صرّحت بذلك في عدد من الأحاديث الصحيحة، رواها البخاري ومسلم ومنها قولها: «طيبت رسول الله ﷺ بيدي لحرمه حين أحرم، ولحلّه حين أحل قبل أن يطوف بالبيت» [صحيح مسلم، 8/ 99].

إنه لتصوير رائع معبر على أهمية حق الزوج على المرأة، أرادت أم المؤمنين أن تقرب في أذهان النساء مكانة حق الزوج على زوجته، وأن تستل من نفوس بعض النساء المستكبرات على أزواجهن ذلك الشعور الجافي الغليظ النشاز الذي كثيراً ما يؤدي بصرح الحياة الزوجية، أو يقلبها إلى جحيم لا يطاق.

إن بر الزوج وإكرامه والحفاوة به خلق أصيل في أمتنا، وهو من مكارم الأخلاق التي كانت سائدة في الجاهلية وأقرّها الإسلام، وتوارثتها الأجيال العربية المسلمة. وقد وعى تراثنا العربي نصوصاً بليغة في توصية الأمهات بناتهن برعاية الزوج وبره وإكرامه، وتعد وثائق حكيمة اجتماعية ثمينة.

ومن أبرزها وأجملها ما رواه عبدالملك بن عمير القرشي وهو من رجال القرن الثاني الهجري، وكان من أوعية المعرفة والعلم، عن أمامة بنت الحارث، وهي من ربّات الفصاحة والبلاغة والرأي والعقل، فقد روى وصيتها لابنتها وهي على أبواب الزواج، بهذه الصيغة الرائعة، الجديرة بأن تكتب بمداد من ذهب.

قال: لما زوّج عوف بن ملحم الشيباني، وكان سيداً مطاعاً من أشراف العرب في الجاهلية، ابنته أم إياس من الحارث بن عمرو الكندي، فجهزت وحضّرت لتحمل إليه، دخلت عليها أمها أمامة لتوصيها، فقالت:

«يا بنية، إن الوصية لو تركت لفضل في الأدب، أو مكرمة في الحسب، لتركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل.

أي بنية، لو استغنت المرأة عن زوجها بغنى أبيها وشدة حاجته إليها، لكنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء خلقن للرجال، كما لهن خلق الرجال.

أي بنية، إنك قد فارقت الجو الذي منه خرجت، والعش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك مليكاً، فكوني له أمة يكن لك عبداً.

احملي عني خصالاً عشراً تكن لك ذخراً وذكراً:

أما الأولى والثانية، فالصحبة له بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، فإن القناعة راحة القلب، وفي حسن السمع والطاعة رضا الرب.

وأما الثالثة والرابعة، فالتفقد لموضع أنفه، والتعهد لموضع عينه، فلا تقع عينه منك على شيء قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب ريح، وإن الكحل أحسن الحسن الموجود، والماء أطيب الطيب المفقود.

وأما الخامسة والسادسة: فالتعهد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة: فالإرعاء على حشمه وعياله، والاحتفاظ بماله؛ فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على الحشم والعيال حسن التدبير.

وأما التاسعة والعاشرة، فلا تفشي له سراً ولا تعصي له أمراً، فإنك إن أفشيت سره، لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره، أوغرت صدره.

ثم اتقي يا بنية الفرح لديه إذا كان ترحاً، والاكتئاب إذا كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير والثانية من التكدير.

واعلمي يا بنية أنك لن تصلي إلى ما تحبين منه حتى تؤثري رضاه عن رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببت وكرهت، والله يخير لك ويحفظ» [جمهرة خطب العرب، 1/ 145].

وحملت إليه، فعظم موقعها عنده، وولدت له الملوك الذين ملكوا بعده.

وواضح أن هذه الوصية جامعة شاملة لكل ما يخطر على البال، ولما تحتاج إليه الفتاة في الحياة الزوجية من مكارم الأخلاق وحسن العشرة، وذكاء التصرف والتعامل، ومن هنا صلحت أن تكون دستوراً لكل فتاة مقبلة على الزواج.

44

تبر أم زوجها وتكرم أهله

ومن بر الزوجة المسلمة وحسن معاشرتها زوجها، إكرام أمه واحترامها وتقديرها، ذلك أن المرأة المسلمة تدرك أن أعظم الناس حقاً على الرجل أمه فهي تعينه على إكرام أمه وبرّها، وبإكرامها هي أيضاً لأمه وبرّها، وبذلك تكون محسنة لنفسها، ومحسنة لزوجها، ومعينة على البر والتقوى، والعمل الصالح، وتكون في الوقت نفسه امرأة حبيبة إلى قلب زوجها، الذي يقدر إكرامها وبرّها لأهله عامة، ولأمه خاصة، إذ ما من شيء أثلج لقلب الرجل البر الكريم الشهم من أن يرى أواصر الود والاحترام والتقدير والتواصل معقودة بين زوجه وأهله، وما من شيء أبغض لقلب الرجل من أن يرى تفكك تلك الأواصر وتقطعها، واستحكام الشر والبغض والحقد والكيد بين الزوجة وأهله.

والأسرة المسلمة التي استروحت عبير الإيمان بالله، واستضاءت عقول أفرادها وقلوبهم بهدي الإسلام الحنيف بعيدة كل البُعد عن الارتكاس في حمأة هذه الخلائق الجاهلية، التي تعشش عادة في البيئات البعيدة عن هدى الله، وتعاليم دينه الحق.

وقد تبتلى الزوجة المسلمة بحماة أو بأحماء ليسوا على خلق حسن، فواجبها في مثل هذه الحالة أن تحسن التعامل معهم بشيء غير قليل من اللباقة والكياسة والمجاملة والتلطف والدفع بالتي هي أحسن، بحيث تحفظ التوازن في صلاتها بأحمائها وزوجها وتجنب نفسها وحياتها الزوجية أي أثر قد ينعكس عليها من اختلال ذلك التوازن، ولا تحسبن المرأة المسلمة أنها هي المطالبة وحدها في بر الزوج ورعايته وحسن معاشرته، وأن لا شيء من هذا على الزوج.

إن الإسلام الذي نظم العلاقة الزوجية جعل لكل من الزوج والزوجة حقوقاً وجعل عليهما واجبات، وواجبات الزوجة نحو زوجها إكرامه ورعايته وتقابلها حقوقها على زوجها، وإنها لحقوق تصون كرامتها، وتحفظ شخصيتها من كل عبث أو إهمال أو ظلم، وحقوقها هذه واجبات على الزوج نحو زوجته، وعليه أن يحترمها ويتقيد بها ويقوم بتطبيقها وتنفيذها على الوجه الأكمل.

فمن واجب الزوج المسلم أن يحسن القوامة على زوجته، ولا يتحقق له هذا الإحسان إلا إذا كان رجلاً ناجحاً في قيادته لبيته وأسرته، بما اتصف به من صفات رجولية محببة للمرأة، كقوة في الشخصية من غير عنف، ولين في الجانب من غير إسراف ولا تبذير، واحترام لمشاعر الزوجة، وإشعارها بالمسؤولية معه في تدبير شؤون البيت وتربية الأطفال، والتعاون على بناء الأسرة المسلمة الراقية، كما أراد لها الإسلام أن تكون.

45

تحرص على رضا زوجها (تتودد له، تتزين له، تملأ نفسه)

المرأة المسلمة تتودد لزوجها وتحرص على أن يكون سعيداً راضياً، لا ينغص عيشه منغص، فتسمعه الكلام الطيب المفرح، وتمسك عن الكلام الجارح المؤذي المكدر، وتزجي إليه الأنباء السارة، وتزوي عنه الأخبار المحزنة، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، أو تؤجلها إلى وقت مناسب يخف فيه وقعها عليه، وإذا لم تجد مناصاً من إخباره بما يزعجه ويكدر نفسه من أنباء، فإنها تلتمس السبل والأساليب المناسبة للدخول بها إلى نفسه، والتمهيد لها، كيلا يكون وقعها على نفسه شديداً، وهذا من حسن التأني ورجاحة العقل وذكاء التصرف الذي تتحلى به المرأة المسلمة.

ومن المواقف الذكية المحببة في تودد المسلمة لزوجها: ما قالته أم المؤمنين السيدة عائشة للنبي ﷺ حين عودته إلى نسائه بعد أن اعتزلهن شهراً وكان قد قال: «ما أنا بداخل عليهن شهراً»، من شدة موجدته عليهن، فلما مضت تسع وعشرون دخل على عائشة فبدأ بها، فقالت له عائشة: إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً وإنا أصبحنا بتسع وعشرين ليلة، أعدّها عداً، فقال النبي ﷺ: «الشهر تسع وعشرون» وكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين [صحيح مسلم، 7/ 195].

والمرأة المسلمة الودود تتعرف ميول زوجها ورغباته وعاداته وتعمل على مراعاتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ابتغاء التفاهم والانسجام في مسيرة الحياة الزوجية ودفعاً للسأم والتذمر في رتابتها، وهذا ما تفعله كل امرأة ذكية واعية، فقد روي عن شريح القاضي الفقيه أنه تزوج امرأة من بني حنظلة، وفي

ليلة زفافها صلى كل من الزوجين ركعتين، وسألا الله لهما الخير، ثم أقبلت الزوجة على شريح قائلة: إني امرأة غريبة، لا علم لي بأخلاقك، فبيّن لي ما تحب فآتيه، وما تكره فأبتعد عنه، ويقول شريح: مكثت معي عشرين سنة، لم أعتب عليها في شيء، إلا مرة واحدة كنت لها ظالماً.

هذه هي الزوجة البرّة الودود التي يريدها الإسلام، راعية بيتها، وفية لزوجها حريصة على دوام العشرة بينهما، وإذا ما هبت على حياتهما الزوجية رياح مكدرة سارعت إلى تنقية الجو بالتودد الصادق والتفاهم الحكيم، ولا تستمع إلى وسوسات الشيطان ونزعات النفس الأمارة بالسوء، فتسارع إلى طلب الطلاق من زوجها، ذلك أن عقدة الزوجية أكبر من أن تنفصم عُراها لخلاف عارض أو سوء تفاهم ناشز، ولذلك توعد الرسول ﷺ المرأة الخفيفة الطائشة الحمقاء المسارعة إلى طلب الطلاق من زوجها لغير ما سبب شرعي قاهر بحرمانها من رائحة الجنة إذ قال: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة» [رواه الترمذي، 2/ 329].

إنها لتتزين له بكل ضروب الزينة والحلي بحيث تبدو جميلة أنيقة، فاتنة تسر عين زوجها، وتدخل السرور على قلبه، وتترع نفسه بالسعادة، وهذا ما كانت عليه نساء السلف الصالح، العاكفات على عبادة ربهن، وتلاوة كتابه، وعلى رأسهن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وغيرها فقد كن يرتدين الثياب الفاخرة، ويتخذن الحلي في الحضر والسفر تجملاً لأزواجهن.

ألا فلتسمع الزوجات المهملات المتساهلات في زينتهن لأزواجهن توجيه أم المؤمنين السيدة عائشة، وليعلمن أن زينتهن يجب أن تكون في المقام الأول لأزواجهن لا لرفيقاتهن، وإن المتساهلات المقصرات في التزين لأزواجهن آثمات، لأنهن يخللن بواجب كبير من واجبات الزوجية، وقد يكون بإهمالهن هذا سبباً في انحراف أزواجهن عنهن، ومدّ أبصارهم إلى غيرهن.

إن الزوجة لا يقع بصر زوجها منها إلا على الشعر الأشعث المنفوش والوجه الأصفر الشاحب، والثوب المهلهل، لهي زوجة عاقة، وليس بمغن عنها أن تسارع إلى زينتها يوم تستقبل الضيوف أو تذهب إلى حفلة تجتمع فيها النساء، وتبقى في معظم أيامها مهملة مظهرها وزينتها لزوجها. وأحسب أن المرأة المسلمة أنها في نجاة من هذا التقصير لأنها بارة بزوجها، ولا يجتمع البر والتقصير بحق الزوج في قلب زوجة مسلمة واعية.

لقد كان من هدي هذا الدين للمرأة أن تتزين لزوجها وتتجمل، بحيث لا يرى منها إلا ما يحب، ولذلك حرم عليها أن تظهر في ملابس الحداد القاتمة فوق ثلاثة أيام إلى على زوجها، فقد أذن لها بالحداد عليه أربعة أشهر وعشراً.

لا يغيب عن بال المرأة المسلمة الواعية أن تنجح في الدخول إلى قلب زوجها، وأن تملأ نفسه بحيث يحس في قرارة نفسه أنه سعيد باقترانه بها، هنيء في عيشه معها، منعم بصحبتها، ومن هنا هي تستخدم ذكاءها في معرفة الوسائط والأسباب التي تفتح مغاليق قلب وزجها، لتدلف إليه بيسر وسماحة وغبطة، ولتجلس على عرشه منعمة هانئة سعيدة.

إنها لتدرك أنها خير متاع في حياة الرجل في الدنيا، ولا يغيب عنها أنها تكون خير متاع الدنيا، إن عرفت كيف تدخل قلب الرجل (زوجها وتملأ قلبه) أما إذا لم تعرف كيف تدخل قلب زوجها ولم تملأ نفسه فإنها تكون في الغالب مصدر شقاء لزوجها وتعاسة ونكد، وهذا ما أكده رسول الله ﷺ بقوله: «من سعادة ابن آدم ثلاثة، ومن شقوة ابن آدم ثلاثة. من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح. ومن شقوة ابن آدم: المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء» [رواه أحمد، 1/ 168].

ومن هنا كان حسن تبعل المرأة زوجها، ودخولها قلبه من الدين، لأن في ذلك عفة للرجل وحصانة، وتوطيداً لدعائم الأسرة ومتانة، وسعادة لها

ولزوجها وغبطة إذ كانت المرأة بفطرتها تحب غزو قلب الرجل، وتجد في ذلك إرضاء لأنوثتها وإرواء لنزعة الجاذبية والإغراء فيها، فإن المرأة المسلمة لا تقف عند هذه الدواعي والنزعات، وإنما تجد في استمالة قلب زوجها إرضاء الله عز وجل الذي جعل حسن تبعلها زوجها ديناً، وتحاسب عليه، ومن هنا هي لا تألو جهداً في توددها لزوجها وتحببها إليه، بالمظهر الحسن، والكلمة الطيبة، والمعاشرة الراقية المحببة.

46

لا تفشي سراً لزوجها

والمرأة المسلمة التقية لا تنشر سر زوجها، ولا تتحدث إلى أحد بما يكون بينه وبينها من أعمال وأسرار، ذلك أن المرأة المسلمة الواعية أكبر وأرفع من التدني إلى مستوى الاستهتار والمجون والخوض في الأحاديث التافهة التي تكون في البيئات المتدنية، وإن وقتها لأثمن من أن يضيع في مثل هذه الأعمال الوضيعة التي لا تصدر إلا عن الفارغين والفارغات والتافهين والتافهات، ومن هنا هي تربأ بنفسها أن تكون من هذا النمط من الناس الذين وصفهم رسول الله ﷺ بشر الناس في قوله: «إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشر أحدهما سر صاحبه» [صحيح مسلم، 10/ 8].

إن التحدث بما يكون بين الرجل والمرأة من أبشع إفشاء الأسرار، ولا يرتكبه إلا الأشرار من الناس، وهناك أسرار ليس إفشاؤها في هذه الدرجة من القبح والاستهجان، ولكنه إفشاء مكروه مستنكر على كل حال، لأن حفظ السر في حد ذاته من الفضائل والكمالات، وإفشاءه من الأخطاء والعيوب التي لم يسلم منها بشر إلا المعصوم ﷺ . ولقد أدى إفشاء الحديث الذي أسرّه النبي إلى حفصة فنقلته إلى عائشة وما تبع ذلك من تآمر ومكايدات في بيت الرسول ﷺ إلى اعتزال النبي ﷺ نساءه شهراً من شدة موجدته عليهن، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: 3].

ثم يواجه المرأتين بخطئهما ويدعوهما إلى التوبة، لتعود قلوبهما إلى الله، بعد أن بعدت عنه بما كان منهما، وإلا فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة.

إن في هذا الحادث لتوجيه بليغ للمرأة المسلمة بقيمة حفظ السر، وأثر هذا الحفظ في استقرار النفوس والضمائر والبيوت، ولقد كان من نعمة الله الكبرى على المسلمين الخاصة والعامة كتاباً مفتوحاً لأمته وللبشرية كلها.

لقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم أن حياة الرسول ﷺ كلها لدعوته إلى الإسلام، فعلام يطوون جانباً من حياته ويكتمونه، إن الوقائع المروية عنه في حياته وبيته وأزواجه هي التطبيق العملي لما يأمرهم به بلسانه، ولذلك نقلوا للناس جزاهم الله خيراً أدق تفصيلات حياته اليومية العادية وسجلوها ونقلوها.

47

تقف إلى جانب زوجها وتشاركه الرأي

لقد كان من سنن الله أن يقوم الرجل والمرأة معاً بعمارة هذا الكون وتصريف شؤون الحياة فيه، لا غنى للرجل عن المرأة، ولا غنى للمرأة عن الرجل، ومن هنا جاءت تشريعات الإسلام وتوجيهاته بالتعاون بينهما في كل شيء، وقد خص الإسلام الرجل على معاونته زوجه، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكان رسول الله ﷺ هو قدوة المسلمين، في أهله حتى يخرج إلى الصلاة، كما تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، كما كان الرجل في الإسلام يجاذب المرأة أمر العمل وتدبير المنزل، كذلك كانت المرأة تجاذبه شؤون العالم وجدّ الحياة بالقول والرأي والعمل.

فقد حدثنا التاريخ عن المرأة المسلمة من النساء المجاهدات أنها سارت مع الرجل جنباً إلى جنب في الغزوات والمعارك، تروي العطاش، وتأسو الجراح، وتجبر الكسر، وتثير الحمية، وتهيج الحفيظة، وربما غشيت غمار الحرب، واصطلت بنارها، وصالت وجالت بين السيوف والقنا، وثبتت حين فرّ بعض الأبطال، كما كان لها مواقف أثنى عليها رسول الله ﷺ .

ولم تقتصر مساهمة المرأة المسلمة في الحياة العامة على مساندة الرجل في الحرب بل وقفت إلى جانبه أيضاً في السلم، تمده بالرأي السديد وتثبته وقت الشدة، وتشد عضده في الموقف العصيب.

لقد وعى التاريخ أسماء عديد من الرجال العظماء في الإسلام، كانوا يستمعون إلى مشورة زوجاتهم، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، إذ كان يصدر

أحياناً عن رأي خديجة وأم سلمة وعائشة وغيرهن من أزواجه، وكان عبدالله ابن الزبير يصدر عن رأي أمه أسماء.

إن المرأة المسلمة الواعية تدرك ضخامة المسؤولية التي ألقاها الإسلام على عاتقها إذ كلفها بحسن تبلعها زوجها، وإحاطته بكل ما يرضي بشريته ويغذي قلبه، ويمتع وجدانه ويجدد نشاطه ويجعله قادراً على أداء رسالته في الحياة، ومن هنا كانت لا تضن عليه برأي حين تراه بحاجة إلى هذا الرأي، ولا تتوانى عن الوقوف إلى جانبه، تشجعه وتثبته وتواسيه وتشير عليه.

لقد كانت أم المؤمنين الأولى خديجة رضي الله عنها للرسول ﷺ وزير صدق على الإسلام وحسبها شرفاً ورفعة وخلوداً أنها كانت أول من آمن بالله ورسوله، ووقفت إلى جانب زوجها الرسول ﷺ تنصره وتشد أزره، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد التي لاقاها في فجر دعوته، وتحتمل معه ما لاقى من عنت وقرح ونصب ولغوب.

48
تشجعه على الإنفاق في سبيل الله وتعينه على طاعة الله

ومن وقوف المرأة المسلمة إلى جانب زوجها، تشجيعها إياه على البذل والصدقة الإحسان في سبيل الله، لا على التبذير والإسراف وبعثرة الأموال.

ذلك أن المرأة المسلمة الواعية تحب لزوجها الخير وتحضه على الصالحات من الأعمال وتشجعه على الإكثار منها إيماناً منها بأن دفع زوجها إلى الأعمال الصالحات يزيدها شرفاً في الدنيا، وثواباً جزيلاً في الآخرة.

ومن جميل ما يروى في تشجيع المرأة زوجها على النفقة في سبيل الله موقف أم الدحداح حينما جاء زوجها يعلنها أنه تصدق بالبستان الذي تسكنه هي وعيالها طمعاً في عذق في الجنة، فكان جوابها: ربح البيع، ربح البيع، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «كم من عذقٍ رداح لأبي الدحداح في الجنة. قالها مراراً» [رواه أحمد والطبراني].

ومن مآثر الزوجة المسلمة، إعانتها زوجها في الطاعة في ضروبها المختلفة ولا سيما قيام الليل، فإنها بذلك تسدي إليه نفعاً عظيماً إذ تذكره بما قد يغفل أو يكسل عنه أو يتهاون فيه، وتكون سبباً في دخوله وإياها في رحمة الله، وما أجمل الصورة الرضية التي رسمها رسول الله ﷺ للزوجين المتعاونين على الطاعة المتكافلين في تبادل الخير، الداخلين في رحمة الله، وذلك في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت فصلت، وأيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء» [أخرجه أبو داود، 2/ 45 في كتاب الصلاة].

49

قوية الشخصية ومتسامحة صفوح

إن أبرز ما يميّز المرأة المسلمة قوة شخصيتها ونضج تفكيرها وجدية سلوكها، فهذه الخلائق تتحلى بها قبل زواجها وبعده، لأنها نتاج فهمها لدينها، ووعيها لرسالتها في الحياة.

إنها قوية الشخصية في مرحلة اختيار الزوج، لا تذوب شخصيتها ولا تضمحل أمام رغبة والديها إن جنفا عن الحق، وأرادا إرغامها على زواج لا ترغب فيه، ولا تضعف شخصيتها أيضاً أمام الرجل المتقدم لخطبتها، مهما بلغ من المال والجاه، إذا لم تتوافر فيه صفات الزوج المسلم الحق.

وهي قوية الشخصية بعد الزواج، على ما تميّزت به من خلق رضيّ، وسلوك دمث، وطاعة محببة للزوج، وتبرز قوة شخصيتها على وجه الخصوص حين يحتاج الأمر إلى تميّز في الموقف يتعلق بعقيدتها ودينها، كما رأينا في إصرار أم سليم بنت ملحان على الإسلام هي وابنها أنس، مع بقاء زوجها مالك بن النضر على الشرك ومعارضته لإسلامها، وكما رأينا أيضاً من ثبات أم حبيبة بنت أبي سفيان على عقيدتها ودينها، يوم ارتدّ زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي، دخل في دين الأحباش، وكما رأينا في إصرار بريرة على مفارقة زوجها الذي لا تحبه، مع شفاعة النبي ﷺ ، وكما رأينا في طلب امرأة ثابت بن قيس بن شماس طلاقها من زوجها الذي لا تحبه أيضاً واستجابة الرسول ﷺ لطلبها.

لقد كان الدافع الأساسي لدى هؤلاء النساء الفضليات في مواقفهن القوية، الحرص على سلامة الدين ونقاء العقيدة، ومرضاة الله عز وجل في نهاية المطاف.

ذلك أن كل واحدة منهن كانت تتحرى الحلال في حياتها الزوجية وتخشى أن تقع في الحرام، إن هي اقترنت برجل لا يؤمن بدينها وعقيدتها، أو إن هي قصّرت في حق الزوج الذي لا تحبه أو لا تطيق العيش معه، ولولا قوة شخصيتها وشعورها بعزة نفسها المؤمنة، لانصاعت لأمر الزوج الضال، وضاعت في متاهات ضلالاته، أو تجرعت غصص التعاسة والشقاء مع الزوج الذي لم ينفتح قلبها للعيش معه، وهذا شأن المرأة المسلمة المستنيرة بهدي دينها في كل زمان ومكان.

على أن قوة الشخصية التي تتحلى بها المرأة المسلمة لا تخرجها عن صفتها المتميّزة في طاعة الزوج وحسن معاشرته وبرّه وإكرامه وتوقيره، بل إن قوة شخصيتها تجعلها متوازنة حكيمة في أقوالها وأفعالها معه، لا طيش فيها ولا تهور ولا خفة، حتى في ساعات الغضب التي لا تخلو منها حياة الزوجين، تمسك المرأة المسلمة نفسها، وتملك زمان لسانها، فما تخرج منها عبارة مسيئة لزوجها، جارحة لمشاعره، وهذا شأن الشخصية القوية المتزنة المتماسكة.

والمرأة المسلمة متسامحة صفوح تتجاوز الهفوات إن وقعت من زوجها ولا تحفظ له تلك الهفوات، ولا تذكره بها بين الحين والحين، وما من صفة تنفتح لها مغاليق قلب الرجل مثل صفة التسامح والعفو والغفران، وما من صفة توصد أبواب قلب الرجل مثل صفة حفظ الهنات، وتعداد السيئات والتذكير بالهفوات.

والمرأة المسلمة الوقّافة عند هدي دينها المتمثل في قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:22] هي هي الجديرة بالتربع على عرش قلب زوجها، وهي هي الخليقة بأن تترع نفسه بالبِشْر والسعادة والحبور.

تلقى زوجها مرحة شاكرة وتشاركه أفراحه وأتراحه وتحقق له الهدوء والراحة:

ومما تتجمل به المرأة المسلمة لزوجها، المرح والبهجة والظرف والأنس تغمر بذلك كله حياة زوجها، فتجعلها بهيجة سعيدة مؤنسة، تلقاه حين يؤوب إلى البيت، كالاً من عمل يده، أو مجهداً من إعمال فكره، بوجه طليق، وابتسامة مشرقة، وكلمة طيبة، تطوي همومها ساعة تلقاه، لتنسيه بذلك بعض همومه، وتبدي كل ما تستطيعه من بهجة ومرح وظرف لتفتح نفسه على السعادة وهناءة العيش، وتسمعه كلمة الشكر والعرفان بالجميل، كلما بدرت منه نحوها بادرة خير، أو قدّم لها شيئاً حسناً، أو فعل ما يستحق عليه الشكر والثناء.

ذلك أن المرأة المسلمة الواعية وفية منصفة، لا تعرف الكنود والجحود لأحد من الناس، لأن لها من هدي دينها ما يعصمها عن التردّي في مهاوي الأخلاق المنكرة، فكيف مع زوجها الحبيب ورفيق دربها الطويل.

لقد فقهت دينها وقول رسولها الكريم ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» [أخرجه البخاري، 1/ 310].

وفهمت من هذا الهدي العظيم أن كل صانع خير ومعروفٍ وبرٍّ من الناس يستحق الشكر والعرفان، فكيف تتوانى أو تتلكأ أو تتردد في إزجاء الشكر لزوجها وهي تسمع قول الرسول ﷺ: «لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها، وهي لا تستغني عنه» [أخرجه الحاكم في مستدركه، 2/ 190].

ومما تدخل به المرأة قلب زوجها وتملأ نفسه، مشاركتها إياه في أفراحه وأتراحه وفي همومه ومسرّاته.

إنها لتشاركه بعض هواياته وأعماله اليومية، كالقراءة والرياضة والاستماع إلى بعض الأحاديث المفيدة، وغير ذلك، بحيث يشعر الزوج أنه ليس وحده في استمتاعه بطيبات الحياة، وإنما تبادله كؤوسها الشهية المترعة زوجة وفية مرحة حصيفة ودود.

وفي مسابقة الرسول ﷺ السيدة عائشة غير مرة: دليل على حض الإسلام الزوجين كليهما على مشاركة كل منهما ألفة متعة الحياة ومسرّاتها ومباهجها، لما لتلك المشاركة من أثر كبير في ريّ العاطفة الزوجية وتوطيد أواصرها وتوثيق عراها.

وكما شاركته أفراحه ومسراته تشاركه همومه وأحزانه وأتراحه، فتكون إلى جانبه بالكلمة الطيبة المؤنسة المواسية، والرأي السديد الناضج الناصح والتعاطف القلبي الصادق.

ولا تكتفي المرأة المسلمة بتجملها لزوجها ومشاركتها إياه فيما يحب من هوايات وأعمال بل تحرص على أن تحقق له الهدوء والراحة والسكينة في البيت، كما تحرص على ألا يقع بصره إلا على ما يسره في بيت نظيف مرتب، يرى فيه النظام والذوق، وأولاد مهذبين مؤدبين نظيفين، ومائدة جميلة منسقة، وما إلى ذلك مما تضفي عليه المرأة الحصيفة الذكية اللبقة من ذوقها ونباهتها وسمو مشاعرها، وهذا كله من حسن تبعل المرأة زوجها الذي أوصى به الإسلام.

ولا يغيب عن بال المرأة المسلمة الواعية أن الزواج في الإسلام آية من آيات الله، إذ جعل الزوجة سكناً للزوج، وراحة وطمأنينة وأنساً وسلوى.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم:21].

إنها صلة النفس بالنفس في أعمق روابطها، يعقدها الله بين النفسين لتنعما بالسكينة والطمأنينة، والمتاع الحلال الطيب، وإن الزوجة لهي المثابة والأمن والراحة للرجل في بيت الزوجية المحبب، العامر بالمودة الخالصة، والرحمة الظليلة. والمرأة المسلمة خير من يفهم هذه المعاني العالية، وخير من يعمل على تطبيقها إلى واقع مؤنس بهيج سعيد.

مقتطفات من بستان ما قيل في النساء:

روى الأصمعي فقال: دخلت البادية فإذا أنا بامرأة من أكثر النساء جمالاً وزوجها من أقبح الرجال منظراً، فقلت لها: يا هذه .. كيف تقبلين لنفسك أن تكوني لمثل هذا؟ قالت: يا هذا .. اسكت فقد أسأت قولك. فلعله أحسن بينه وبين خالقه فجعلني ثوابه، ولعلني أسأت فيما بيني وبين خالقي فجعله عقوبتي. أفلا أرضى بما رضي الله لي؟ فأسكتتني.

روي عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت لها زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا» [رواه الترمذي].

قال ﷺ : «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله» [رواه الترمذي].

قال ﷺ : «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة» [أخرجه الترمذي].

عن أبي هريرة ﷺ قال: إن النبي ﷺ قال: «اطلعت على النار فإذا أكثر أهلها من النساء، فقلت له: لمَ يا رسول الله؟ فقال: لأنهن يكثرن من اللعن، ويكفرن العشير» [متفق عليه].

أتت فتاة إلى رسول الله ﷺ وقالت: «إني فتاة أخطب ولست أرغب بالزواج ذلك لأنني أجهل حق الزوج على الزوجة، فقال لها: لو كان من رأسه إلى أخمص قدميه صديد فلحسته ما أديت شكره، فقالت: أفلا أتزوج؟ فقال: بلى تزوجي فإنه خير» [أخرجه الحاكم وصحيح إسناده].

وقال ﷺ : «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها» [رواه الترمذي].

كان أحد الصحابة وهو ربيعة الأسلمي ﷺ قد انقطع لخدمة رسول الله ﷺ ، وكان يبيت عنده، فقال له رسول الله ﷺ : ألا تتزوج؟ فقال: يا رسول الله إنني فقير لا شيء لي، وأنقطع عن خدمتك، فسكت. فسأله الرسول ﷺ مرة ثانية: فأعاد الجواب، ثم فكر الصحابي وقال: والله إن رسول الله ﷺ أعلم بما يصلحني في دنياي وآخرتي، وما يقربني إلى الله، ولئن قال لي الثالثة لأفعلن.

فقال له رسول الله ﷺ الثالثة: ألا تتزوج؟ فقال: يا رسول الله زوجني، قال ﷺ له: اذهب إلى بني فلان وقل لهم: إن رسول الله ﷺ يأمركم بأن تزوجوني فتاتكم، فقال: يا رسول الله لا شيء لدي.

فقال لأصحابه: اجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب، فجمعوا له، وذهبوا به إلى القوم فأنكحوه، فقال: أَوْلِمْ، فجمعوا له ثمن شاة للوليمة [إحياء علوم الدين، ص26].

كان جهاز فاطمة الزهراء رضي الله عنها: حصير من جريد النخيل، ورحاة، وقربة ماء وجلد تجلس عليه.

قال ابن مسعود ﷺ : لو لم يبقى من عمري إلا عشرة أيام لأبيت إلا أن أتزوج كي لا ألقى الله عازباً.

مات لمعاذ بن جبل زوجتان في الطاعون وكان هو به مصاباً أيضاً، فقال: زوجوني فإني أكره أن ألقى الله عازباً.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الطفل يجر بأبويه إلى الجنة أي: أنه يأخذ بثوبه كما أنا آخذ بثوبك» [أخرجه مسلم].

عن عكرمة ومجاهد، أنهما قالا في معنى قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: 28]، أي: أنه لا يصبر عن النساء.

وقال فياض بن نجيح: إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلث عقله، وبعضهم يقول: ذهب ثلث دينه.

قال ﷺ : «من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم، قيل: يا رسول الله واثنان؟ قال: واثنان» [أخرجه البخاري في الأدب المفرد].

من تحب المرأة العادية:

تحب المرأة الرجل الشديد، القوي، المتكلم، الذي يشار له بالبنان، وتزيد المحبة بهذا الرجل إذا شعرت المرأة بأن زوجها مرغوب من قِبَل النساء، فمن الطبيعي جداً أن تحب المرأة الرجل القوي لأنها عنصر ضعيف، والضعيف دائماً يكون بحاجة للقوة، ولا سلاح للمرأة أقوى من الرجل القوي الذي يستطيع أن يحميها وتشعر في كنفه بالأمان.

من تحب المرأة المسلمة:

تحب الرجل المؤمن القائم القانت الخائف من خالقه، الأمين الصادق، الطيب الرحيم، صاحب الشخصية القوية، ولكن أهم صفة في الرجل الإيمان وخوفه من الله، فهذا هو أساس الاختيار.

كان هناك امرأة مسلمة متزوجة من أحد الدعاة إلى الله قد خرجت ذات يوم بدعوة إلى الله عز وجل، وكان لها تأثير على قلوب النساء. وقد صادفت فتاة جميلة المنظر حزينة كئيبة كأنها تحمل هموم الدنيا على ظهرها، فدعتها إلى الله، فاستجابت تلك الفتاة استجابة غير المتيقن من نفسه.

قالت للأخت الداعية: أأنت مؤمنة بالله حقاً؟ فقالت الداعية: نعم بعون الله.

فقالت لها الفتاة: إذاً سأفشي لك سراً راجيةً إخفاءه. وأرجو منك إرشادي إلى طريق الخير والنجاة، وجزاك الله عني كل خير.

فقالت الداعية: قولي ما عندك يا أختاه.

فقالت الفتاة: لقد خطبني شاب، وحصل أن اختلينا ببعضنا، فخدعني، ودخل بي قبل إعلان الزواج، ثم حصل خلاف بينه وبين والدي فتركني ولم يعد، وتزوج من فتاة غيري، وها أنا تائهة أفكر بالانتحار. وأنا خائفة من عذاب الله، ومن انكشاف أمري أمام الناس، فلو علم أبي وإخوتي بما جرى لقتلوني، أرشديني هداك الله.

فقالت لها الأخت الداعية: لا تحزني ولا تخافي عسى أن يجعل الله لك بعد العسر يسراً، عودي إلى الله، وتوبي إليه توبة نصوحاً، إن من أسماء الله التواب. ولتخفف عن الفتاة مصابها وتدخل الطمأنينة إلى قلبها قالت لها: سأروي لك قصة حدثت في عهد سيدنا موسى ﷺ : دخلت امرأة على موسى ﷺ فقالت له: يا موسى يا نبي الله إني زنيت، فحملت، فقتلت ولدي، فهل لي من مغفرة، فغضب موسى ﷺ منها، وقال: اخرجي عنا قبل أن ينزل علينا غضب من عنده، فخرجت تبكي يائسة كئيبة، فأنزل الله سبحانه جبريل ﷺ على موسى، وقال له: «يا موسى كيف تطرد التائبة، أتعلم من أعظم ذنباً من هذه المرأة؟ رجل علم بآية من كتاب الله ثم نسيها».

فسرّت الفتاة سروراً عظيماً، وقالت: أيقبل الله توبتي؟

قالت الأخت الداعية: نعم، لكن بشرط أن تتوبي التوبة النصوحة.

فقالت الفتاة: اشهدي بأني قد تبت إلى الله توبة نصوحة، وإني أستغفره وأتوب إليه.

أخذت الفتاة تعمل مع الداعية، وأقبلت على العمل الإسلامي كأنها تريد كفارة لذنبها فأبدعت في الأسلوب والإخلاص.

وبينما هي على هذه الحالة تقدم شاب لخطبتها فوافق والدها لكنها رفضت بعد أن تذكرت ما حصل معها، حاول والدها الضغط عليها لكنها أبت بشدة، واستمرت بالعمل والدعوة لله فجاءها خاطب آخر.

فقال لها والدها: لن أقبل استمرارك بالرفض والعناد، ستتزوجين؟

لكنها خشيت من افتضاح أمرها لو تزوجته.

فقالت لها الداعية: إنني وجدت لك زوجاً يعلم بسرك، وساتر لأمرك، ومحتسب عند الله من غير منة، ولا سوء معاشرة، مؤمن بالله يرجو منه المغفرة ويعفو عن الناس وصاحب خلق حميد.

فقالت الفتاة: وهل يقبل الزواج مني؟

فقالت الداعية: بل أتقبلين أنت الزواج به؟

فقالت الفتاة: كيف لي أن أرده؟

فقالت الداعية: إذاً اذهبي إلى بيتك وإياك أن ترفضيه، ووافقي من غير سؤال.

فذهبت الداعية إلى زوجها وأبلغته قصة الفتاة، فداخلته الرأفة عليها.

فقالت له زوجته: أليس لك أن تستر عليها وتنجيها من مصابها فتكتب لك حسنة عسى أن يستر علينا الله بها يوم القيامة.

فقال لها زوجها: كيف يكون ذلك؟

قالت الداعية: بأن تتزوجها، وتعيش تحت ظلك، ونعمل لله وأنا راضية بذلك، راجيةً ألا تتردد، فوافق الزوج على ما طلبته منه.

فذهبا معاً إلى بيت والد الفتاة فتقدم لخطبة الفتاة لنفسه ودخلت زوجة الداعية إلى أم الفتاة وأقنعتها بالموافقة، وذلك لأنها مريضة وغير قادرة على

تأدية حقوق الزوجية له. فأخبرت أم الفتاة زوجها ما قالته الداعية لها: فدخل الوالد ليسأل ابنته، فوافقت الفتاة دون أن تعرف أنه زوج أختها في الله.

وتم الزواج، فكانتا من أفضل الدعاة إلى الله عز وجل، ونعم الزوجات الصالحات للرجل الصالح.

كان النعمان يسير إلى جانب بستان، فسقطت منه تفاحة على جانب الطريق فأكلها النعمان وبعد ذلك ذهب يبحث عن صاحب البستان ليعطيه ثمنها أو يستسمحه، وجد النعمان عاملاً على البستان، فسأله عن صاحب البستان، فأجابه قائلاً: إنه في بلد كذا فأعد النعمان عدته، وتزود بزاد السفر وذهب يبحث عن صاحب البستان طالباً منه السماح أو دفع ثمن التفاحة، فلما دخل على صاحب البستان وعرض عليه ما جاء من أجله، قال للنعمان: أقدمت من بلاد كذا من أجل ذلك؟

فقال: نعم.

قال: أنا لا أقبل ثمناً للتفاحة، ولا أسامحك إلا بشرط.

فقال النعمان: اشرط.

قال: إن لي ابنة عمياء وأريد أن أزوجك إياها، فإن قبلت سامحتك.

فقال النعمان: قبلت.

فقال الرجل: إنني لم أخبرك بأنها صماء وبكماء وعرجاء، وما زال يضع في ابنته عيوباً، والنعمان يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قَبِلَ النعمان أن يتزوجها على أن يسامحه الرجل، فلما دخل النعمان على ابنة الرجل ليتزوجها وجدها من أجمل النساء وأكملهن.

فقال لها: لكن أباك قال لي غير ذلك.

قالت: صدق أبي، فأنا عمياء عن النظر إلى المحرمات، وعرجاء عن الأسواق، وصماء عن سماع الباطل وبكماء عن قول الفاحشة.

فتزوج النعمان بهذه الزوجة الصالحة، وأنجبت له أبا حنيفة النعمان، فنِعْمَ الزوجات اللواتي ينجبن أمثال أبي حنيفة.

كان لسعيد بن المسيب ابنة جميلة وقد تعلمت الفقه عن أبيها فتقدم لخطبتها ابن خليفة المسلمين عبدالملك بن مروان، فرد على الرسول: إني لا أحب الأمراء، ولا مصاهرتهم، فلما عاد الرسول إلى الخليفة ذهب سعيد إلى المسجد، وبعد الدرس سأل عن أحد رواد المسجد فقيل له: لقد ماتت زوجته ولم يحضر إلى المسجد منذ أيام، فقال سعيد: وجب أن نزور صاحبنا.

فلما دخلوا عليه البيت وجدوه جالساً على حصير من قش، وقد طبع في جنبيه وقد انطوى من الجوع؟ فقال له سعيد: لماذا لم تحضر إلى المسجد؟

فقال: لقد ماتت عليّ زوجي، وقد بعت ماعون بيتي وكفنتها، ولم أجد طعاماً أسند به نفسي حتى أحضر إلى المسجد.

فقال سعيد: لماذا لا تتزوج إذاً؟

فقال: ومن يزوجني وأنا لا أملك طعاماً؟

فقال سعيد: أنا أزوجك ابنتي، فظن الرجل أن سعيداً يسخر منه.

فقال سعيد: ألا تقبل بنسبي؟

فقال: بل أقبل، لكني لا أملك مالاً.

فقال سعيد: أنا زوّجتك ابنتي، وأشهد شاهدين على ذلك.

وعاد سعيد إلى ابنته.

فقال لها: أي بنية إني زوجتك لرجل مؤمن صالح، تزيني واعلمي أن خير الزينة ماء الوضوء، وتكحلي. ثم أخذ بيدها وذهب إلى بيت زوجها فطرق عليه الباب فلما فتح له الباب ورأى سعيداً وابنته لم يصدق.

فقال له سعيد: خشيت أن أحبس عنك زوجك فيسألني ربي لِمَ حبست زوجه، وأعطاه عصا، وقال له: إن أطاعتك فاتق الله فيها، وإن عصتك فالعصا. قال تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾ [النور:32] فعاد عليهم سعيد بعد فترة فوجدهم على أحسن حال.

أخلاقها وقلبها ولسان حالها القرآن:

قال عبدالله بن المبارك، خرجت حاجّاً إلى بيت الله الحرام وزيارة الرسول ﷺ، فبينما أنا في بعض الطريق إذا بسواد على الطريق، فتميزت ذلك، فإذا هي عجوز عليها درع من صوف، وخمار من صوف، فقلت لها: السلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فقالت: سلام قولاً من رب رحيم.

قال: فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟

قالت: ومن يضلل الله فلا هادي له.

فعلمت أنها ضالة عن الطريق.

فقلت لها: أين تريدين؟

فقالت: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

فعلمت أنها قضت حجها وهي تريد بيت المقدس.

فقلت: منذ كم وأنت في هذا الموضع؟

فقالت: ثلاث ليالٍ سويا.

فقلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين.

قالت: هو يطعمني ويسقين.

فقل: بأي شيء تتوضئين؟

قالت: فإن لم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً.

قلت لها: إن معي طعاماً فهل لك في الأكل.

قالت: ثم أتموا الصيام إلى الليل.

فقلت: ليس هذا شهر رمضان.

قالت: من تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم.

فقلت: قد أبيح لنا الإفطار في السفر؟

قالت: وإن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون.

فقلت: لِمَ لا تكلميني مثل ما أكلمك؟

قالت: ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد.

قلت: أي الناس أنتِ؟

قالت: ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً.

قلت: قد أخطأت فاجعليني في حل.

قالت: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم.

فقلت: فهل لي أن أحملك على ناقتي؟

قالت: قل للمؤمنين أن يغضوا من أبصارهم.

وقلت لها: اركبي، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها.

فقالت: وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم.

فقلت لها: اصبري حتى أعلقها.

قالت: ففهمناها سليمان.

قلت لها: اركبي.

فلما ركبت قالت: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون.

قال: أخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح.

فقالت: واقصد في مشيك واغضض من صوتك.

فجعلت أمشي رويداً رويداً وأنا أترنم بالشعر.

فقالت: فاقرؤوا ما تيسر من القرآن.

فلما مشيت بها قليلاً قلت: ألك زوج؟

قالت: يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم.

فسكت ولم أكلمها حتى أدركت لها القافلة.

فقلت: هذه القافلة من لك فيها؟

فقالت: المال والبنون زينة الحياة الدنيا.

قلت: هذه القباب فمن لك فيها.

قالت: واتخذ الله إبراهيم خليلاً، وكلم الله موسى تكليماً، يا يحيى خذ الكتاب بقوة، فناديت: يا إبراهيم يا موسى يا يحيى، فإذا الشبان كأنهم أقمار قد أقبلوا، فلما استقر بهم الجلوس قالت: فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه.

فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدي.

فقالت: كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية.

فقلت: الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها.

فقالوا: هذه أمنا، لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن، فسبحان القادر على ما يشاء.

فقلت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

50

موفية بالوعد

ومن خلائق المرأة المسلمة الصادقة، خلق الوفاء بالوعد، وهو قرين الصدق، نتيجة طبيعية من نتائجه، وثمرة يانعة من ثمراته.

والوفاء بالوعد خصلة حميدة، تدل على رقي المرأة التي تحلت بها، وتعينها على النجاح في حياتها، وتكسبها محبة الناس واحترامهم وتقديرهم.

ولا يخفى أثر خلق الوفاء بالوعد في غرس الفضائل الخلقية والنفسية في الأبناء والبنات حين يجدون أمهاتهم يتحلين به، فيضربن بذلك المثل الأعلى، ويقدمن الأسوة الحسنة.

وخلق الوفاء عند المرأة المسلمة ليس حلية اجتماعية، تباهي بها قريناتها، إنما هو خلق أصيل، ومن أكثرها دلالة على صحة الإيمان وصدق الإسلام، وقد وردت في تأصيله والحض على التحلي به نصوص كثيرة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1].

﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: 34].

إنه أمر رباني قاطع لعباده المؤمنين والمؤمنات بالوفاء بالعهد ومستلزماته وفاءً عملياً لا مجال للتخلص والانسلال منه، فما يليق بالمسلمين والمسلمات، إذا قطعوا عهداً على أنفسهم أن يتنصلوا منه، بل يجب عليهم الوفاء به، وقد أضيف العهد في بعض الآيات إلى الله عز وجل، دلالة على قدسيّته وجلاله ووجوب الوفاء به.

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل:91].

ذلك أن الإسلام يمقت الثرثارين والثرثارات، والمتبجحين بالوعود والمتبجحات، والقوالين والقوالات من غير أفعال ولا وفاء ولا إنجاز، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:2-3].

لقد كره الله لعباده المؤمنين والمؤمنات أن يسفّوا إلى درك الثرثرة الفارغة والوعود الطائرة الفضفاضة، فيخلفون وعودهم، ويتحللون من عهودهم ويتنصلون من التزاماتهم، لأن ذلك لا يليق بالمؤمنين والمؤمنات.

وقد جاء الاستفهام الإنكاري في صدر الآية معبراً عن ذلك المقت السيئ الكبير الذي يكره الله لعباده المؤمنين أن يرتكزوا فيه إذ يقولون ما لا يفعلون.

ويقول الرسول ﷺ : «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» [متفق عليه، شرح السنّة، 1/ 72 كتاب الإيمان].

إن حسن إسلام المرأة المسلمة ليس في القيام بالعبادات فحسب، وإنما بانفعال نفسيتها بتعاليم الإسلام وأخلاقه الرفيعة وقيمه العليا، بحيث لا يصدر عنها إلا ما يرضي الله عز وجل، فلا إخلاف بالوعد، ولا غش في التعامل، ولا خيانة للعهود والمواثيق في حياة المرأة المسلمة الصادقة المتفهمة تعاليم دينها الحنيف، المنفعلة بهديه اللألاء، لأن ذلك كله منافٍ لأخلاق الإسلام وأهله، ولا يوجد إلا في أخلاق المنافقين.

ألا فلتعلم تلك الحقيقة النسوة اللاتي يكذبن على أولادهن، ويعدنهم ثم يخلفن وعودهن، فيغرسن بأفعالهن هذه في نفوس أولادهن بذور الكذب

والإخلاف بالوعد، ولتعلم النسوة اللائي يضربن بالوعود والعهود عرض الحائط، ولا يقمن وزناً لكلمة الشرف التي قطعنها على أنفسهن، ليعلمن أنهن باستهتارهن هذا بالوفاء بالعهد دخلن في زمرة المنافقات، وجزاء المنافق كما هو معروف الدرك الأسفل من النار.

51

تتجنب النفاق

والمرأة المسلمة الصادقة الراشدة صريحة واضحة في أقوالها وأحكامها بعيدة كل البُعد عن النفاق والمداهنة والمجاملة المحرمة والمديح الكاذب، لأنها تعلم من هدي دينها أن النفاق حرام، وغير لائق بالشخصية المسلمة الصادقة.

لقد وضع لنا رسول الله ﷺ صور النجاة من هذا السقوط المريع في مستنقع النفاق والمداهنة، إذ قال لبني عامر الذين أقبلوا يمدحونه بقولهم: أنت سيدنا فقال: «السيد الله» وقالوا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان، إني لا أريد أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله تعالى، أنا محمد بن عبدالله، عبده ورسوله» [أخرجه البخاري في الأدب المفرد (211)].

لقد قطع رسول الله ﷺ الطريق على المادحين أن يسترسلوا في كيل المديح للناس وفيهم من لا يستحق المديح، حين نهى مادحيه عن وصفه بالسيادة والفضل والطول، وهو سيد المرسلين، وأعظم المسلمين، وأفضلهم لا ريب، لأنه كان يعلم أن باب المديح إذا فتح على مصراعيه أدى إلى مزالق خطيرة من النفاق لا تستسيغها روح الإسلام الصافية النقية البريئة، ولا يقبلها الحق الذي قام عليه هذا الدين، وكان ينهى الصحابة عن مدح نشوة التيه والاختيال والاستعلاء والإعجاب بالنفس.

أخرج الشيخان عن أبي بكر ﷺ قال: «أُثني على رجل عند النبي ﷺ فقال: ويحك! قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك مراراً».

ثم قال: «إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً، والله حسيبه ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه، إن كان يعلم كذا وكذا» [فتح الباري، 10/ 476].

فالمديح إذا كان لا بد منه فينبغي أن يكون صادقاً منطبقاً على واقع الممدوح وينبغي أن يكون معتدلاً متحفظاً لا غلو فيه ولا شطط ولا مغالاة، وبذلك وحده ينقى المجتمع من أوباء النفاق والكذب والمخاتلة والتزلف والرياء والمجاراة.

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن رجاء عن محجن الأسلمي ﷺ أن رسول الله ﷺ ومحجناً كانا في المسجد، فرأى رسول الله ﷺ رجلاً يصلي يسجد ويركع، فقال الرسول ﷺ : «من هذا؟» فأخذ محجن يطريه، ويقول: يا رسول الله هذا فلان، وهذا فلان، فقال: «أمسك، لا تسمعه فتهلكه» [الأدب المفرد، 1/ 423].

لقد سمى الرسول الكريم ﷺ إسماع المديح إهلاكاً، لما له من آثار نفسية عميقة في النفس البشرية المجبولة على حب سماعه، فإذا الممدوح يتيه على الناس، ويشمخ بأنفه ويصعر خده لهم، وإذا تكرر ذلك من المدّاحين المنافقين الكذبة الخادعين، وما أكثرهم حول المتنفذين وأصحاب المناصب والسلطات، صار ذلك عادة له، يلبي رغبة جياشة في نفسه، ومن هنا يكره سماع النصيحة والنقد، ولا يقبل إلا التقريظ والثناء والإشادة وحرق البخور، ولا عجب بعد ذلك إذا ضاع الحق، وقتل العدل ووئدت الفضيلة، وفسد المجتمع.

ومن أجل ذلك أمر رسول الله ﷺ صحابته أن يحثوا التراب في وجه المدّاحين لكيلا يكثر سوادهم في المجتمع الإسلامي، وبكثرتهم يفشو النفاق ويكثر التزلف، ويعم البلاء.

وقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، يتحرجون من المديح يكيله لهم هؤلاء المداحون، مع أنهم أحق به وأهله، اتقاء مزالقه، وخشية هلكته، وتحلياً بالخلق الإسلامي الأصيل البعيد عن هذه المظاهر الرخيصة الفارغة.

فعن نافع ﷺ وغيره أن رجلاً قال لابن عمر ﷺ : يا خير الناس ! أو يا ابن خير الناس! قال ابن عمر: «ما أنا بخير الناس ولا ابن خير الناس، ولكني عبد من عباد الله، أرجو الله تعالى وأخافه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه» [حياة الصحابة، 3/ 103].

وإنها لمقالة حكيمة من صحابي جليل، مرهف الحس الإسلامي، وقّاف عند هدي النبي ﷺ ، متحلٍّ به في سرّه وعلانيته.

لقد فقه الصحابة الكرام هذا الملحظ الدقيق الذي ما فتئ الرسول ﷺ يرشد إليه في الأعمال والأقوال وسلامتها من النفاق، وتوضح لديهم الفرق الكبير بين ما هو حق خالص لوجه الله، وما هو نفاق ومداهنة.

فعن ابن عمر ﷺ أن أناساً قالوا له: إنا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم، قال ابن عمر: «كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ » [فتح الباري، 13/ 170].

والمرأة المسلمة الصادقة لها من هدي دينها ما يعصمها من التردي في منزلق النفاق الخطير الذي تقع فيه كثيرات من النساء في هذا العصر، إذ يحسبن أنهن لم يتعدين حدود المجاملة، وما درين أن هناك مجاملة محرمة يهوين بها من حيث لا يشعرن إلى قرار سحيق من النفاق المهلك الممقوت، وذلك حين يسكتن عن تبيان الحق، أو يكلن المديح لمن لا يستحقه من الناس.

52
متصفة بالحياء

من البديهي أن من صبغة المرأة الحياء، والحياء الذي أعنيه هو، وكما عرّفه العلماء، هو الخلق النبيل الباعث دوماً على ترك القبيح والابتعاد عن التقصير في حق أصحاب الحقوق، وقد كان الرسول ﷺ المثل الأعلى في الحياء، كما وصفه الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري:

«كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه» [متفق عليه، رياض الصالحين، 364].

وقد أشاد الرسول الكريم بخلق الحياء في عدد من الأحاديث الشريفة مبيناً أنه محض على صاحبه وعلى المجتمع الذي يعيش فيه.

عن عمران بن حصين ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «الحياء لا يأتي إلا بخير» [رياض الصالحين، 363].

وفي رواية لمسلم «الحياء خير كله» أو قال: «الحياء كله خير» [صحيح مسلم، 2/ 7].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» [متفق عليه، رياض الصالحين، 363].

إن المرأة المسلمة الصادقة حيية ومهذبة دمثة مرهفة الشعور لا يصدر عنها قول أو فعل يؤذي الناس، أو يخدش كرامتهم.

ذلك أن خلق الحياة المتأصل في طبيعتها المعزز بمفهوم الحياء الإسلامي يحجبها عن كل مخالفة شرعية، ويذودها عن كل انحراف في معاملتها للناس لا حياء وخجلاً منهم فحسب وإنما حياء من الله تعالى، وتحرجاً أن تلبس إيمانها بظلم، إذ الحياء شعبة من شعب الإيمان، وهذا أرقى ما وصلت إليه المرأة من تخلّق بالحياء، ومن هنا كان تمييز المرأة المسلمة بالحياء عن المرأة الغربية التي خلعت كل براقعه.

53

عفيفة عزيزة النفس

ومما تتميّز به المرأة المسلمة التي ارتوت من هدي دينها، العفة وعزة النفس فإذا ما ألم بها ضيق، ودهمتها فاقة، تذرعت بالصبر، واعتصمت بالعفة وعزة النفس، وضاعفت جهدها للخروج من أزمة الفاقة التي تعانيها، ولا تفكر إطلاقاً في أن تقف موقف المسألة والاستجداء، ذلك أن الإسلام يربأ بالمسلمة الصادقة أن تضع نفسها في هذا الموقف، ويهيب بها أن تستعف وتستغني وتصبر، وسيعينها الله، ويثبتها على الصبر والغنى والعفاف.

«من يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر» [متفق عليه، رياض الصالحين، 35 باب الصبر] إن المرأة المستنيرة بهدي دينها لتعلم أن الإسلام الذي جعل في أموال الأغنياء حقاً للفقراء، يتقاضونه بغير منّة ولا أذى ولا غضاضة، أراد للفقراء في الوقت نفسه أن يستغنوا عن هذا الحق، وأعلن أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن على المسلمين، رجالاً ونساءً، أن يعلموا ألا تكون أيديهم السفلى، ذلك أجدر بهم وأكرم، وفي ذلك دفع للمقلّين والمقلاّت أن يضاعفوا من جهودهم، وصون لكراماتهم أن تتعرض يوماً لأذى.

ومن هنا كان الرسول ﷺ يعلن من على المنبر، وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسألة، أن «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة» [صحيح مسلم: 7/ 124].

54

لا تتدخل فيما لا يعنيها

والمرأة المسلمة الواعية الذكية حصيفة لا تتدخل فيما لا يعنيها، ولا تمد عينيها إلى من حولها من النساء، منقبة باحثة عن خصوصياتهن، ولا تدس أنفها في شؤونهن الخاصة، ولا تحشر نفسها في أمر يخص غيرها، ولا يهمها من قريب أو بعيد، وقد يعود عليها بالإثم والمؤاخذة، وهي إذ تجنبت إقحام نفسها فيما لا يعنيها، وتصون نفسها عن الثرثرة الفارغة واللغو الأهوج، إنما تستمسك بخلق دينها الرصين الذي رفع الإنسان المسلم عن التفاهات، وزوده بمكارم الأخلاق وأرشده إلى أحسن السبل في معاملة الناس.

«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» [أخرجه الترمذي، 3/ 382].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى يرضى ثلاثاً ويكره ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال» [صحيح مسلم، 12/ 10].

إن المجتمع الرباني الذي ينشئه الإسلام، لا مجال فيه لقيل أو قال، وكثرة السؤال والتدخل في شؤون الناس الخاصة، لأن أفراده من الرجال والنساء مشغولون بما هو أجلّ وأكبر، إنهم مشغولون بأداء رسالتهم في الحياة، كل في محيطه وفي دائرته، تصب جهودهم جميعاً في تحقيق كلمة الله في الأرض، ونشر قيم الإسلام بين الناس، والذين ينهضون بهذه الأعمال الجسام، لا يجدون وقتاً للخوض في تلك الآثام.

55

تبتعد عن الخوض في الأعراض وتتبع العورات

تنزه المرأة التقية لسانها عن تتبع عورات الناس والخوض في أعراضهم، وتكره أن تشيع مثل هذه الأحاديث في المجتمع المسلم، وعملاً بتوجيهات القرآن الكريم والسنّة النبوية التي اشتدت في وعيد أولئك المفسدين والمفسدات والوالغين والوالغات في أعراض الناس بأشد العذاب في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النور:19].

ذلك أن الذي يخوض في أعراض الناس، وينشر أخبار الفاحشة في المجتمع كفاعل الفاحشة سواء، كما يقول علي بن أبي طالب ﷺ : «القائل الفاحشة والذي يشيع بها في الإثم سواء» [أخرجه البخاري، 1/ 419].

إن المرأة المسلمة لتدرك أهمية معالجة الضعف البشري لدى بعض المتساهلات والمقصرات، لا يكون بتتبع عوارتهن وعيوبهن والتشهير بهن بنشرها على الألسنة في المجتمع، وإنما يكون بحسن عرض الموعظة على أسماعهن، وتزيين طاعة الله عز وجل لهن، وتكريه المعصية على نفوسهن دونما تصريح ولا تجريح ولا مواجهة أو مجابهة، فبالكلمة الطبية والموعظة الحسنة وحسن التأني في عرض الحق على الأسماع تنفتح مغاليق القلوب، وتنقاد النفوس، وتخشع الجوارح، ولهذا نهى الله تعالى عن التجسس وتتبع عورات المسلمين والمسلمات بقوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ [الحجرات:12].

ذلك أن التشهير بالمقصرين والمقصرات، وتتبع عوراتهم، والتجسس عليهم والخوض في الأحاديث عنهم، لا يرتد هذا كله بالأذى عليهم فحسب، وإنما يؤذي المجتمع الكبير الذي يعيشون فيه.

ومن هنا اشتد القرآن الكريم في وعيد الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع فما شاعت الفاحشة في مجتمع وكثر فيه الخوض في الأعراض، وكثرت الشائعات والأقاويل والظنون إلا دبّ فيه داء الانحلال، وهان وقع المعصية في النفوس، وتقطعت وشائج الأخوة، وسرت بين أفراده العداوة والبغضاء والكيد والشحناء وعم الفساد، وإلى هذا يشير الرسول ﷺ بقوله: «إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم» [رواه أبو داود، 4/ 375، كتاب الآداب].

ولهذا كلما اشتد الرسول ﷺ في النهي عن الولوغ في الأعراض والتنقيب عن العورات، وهدد من يتهاون في ذلك بهتك الستر عنه وفضحه، ولو كان معتصماً في جوف بيته «لا تؤذوا عباد الله، ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من تطلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته» [رواه أحمد، 5/ 279].

لقد كان رسول الله ﷺ يتألم جداً في أصحاب الفضول والظنون والشكوك والتطاول على سمعة الناس وأعراضهم، وتنفعل نفسه الشريفة كلما بلغه عن هؤلاء المعتدين نبأ يؤذي الآخرين، وقد صور ابن عباس رضي الله عنه انفعال الرسول الكريم وشدته على هؤلاء الوالغين والوالغات في الأعراض بقوله: «خطب رسول الله ﷺ خطبة حتى أسمع العواتق في خدورهن، فقال: يا معشر من أسلم بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تؤذوا المؤمنين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم هتك الله ستره، ومن يتتبع الله عورته يفضحه، ولو في جوف بيته» [رواه الطبراني].

إنها خطبة نارية، تأججت في نفس الرسول ﷺ حتى أسمع العواتق في خدورهن، وقد استهلها بهذه العبارة الخطيرة «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه» فما أفدحه من خطأ، وما أكبره من إثم! جعل رسول الله ﷺ يعرّي هؤلاء المتطاولين والمتطاولات على أعراض الناس من نعمة الإيمان!

56

بعيدة عن الرياء

لا تنزلق المرأة المسلمة إلى مستنقع الرياء والتفاخر والمباهاة، لأن لها من وعيها وهدي دينها منجاة وعصمة، إذ تعلمت منه أن لب هذا الدين الإخلاص لله تعالى في القول والعمل، وأن أي أثارة من مراءاة تحبط الأجر، وتمحق العمل، وتجلب لصاحبتها الخزي يوم القيامة.

ذلك أن عبادة الله هي الهدف من خلق الإنسان والجان، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:56].

وهذه العبادة لا يقبلها الله إلا إذا كانت خالصة لوجهه الكريم ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:5].

ومتى شاب عمل المسلمة شائبة من رياء أو حب ظهور وطلب لسمعة أو ثناء وشهرة، بطل عملها، ومحق ثوابها، وباءت صاحبته بالخسران المبين مصداق ذلك التحذير القرآني الصريح لأولئك المنفقين أموالهم، والمتبعين نفقتهم بالمن والأذى، يجرحون بها كرامة الآخذين من المحتاجين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:264].

لقد أودت كلمة المن على المحتاجين بثواب الصدقات، كما يودي الماء المنسكب على الحجر الأملس بما عليه من تراب، ويأتي التعقيب المخيف المروع في آخر الآية مبيناً أن أولئك المرائين لا يستحقون هدى الله، وأنهم معدودون في زمرة الكافرين.

ذلك أن شأن هؤلاء المرائين التظاهر أمام الناس بالعمل الصالح، وليس همهم مرضاة الله عز وجل، وقد حكى الله تعالى شأنهم هذا بقوله: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:142].

ومن هنا كان عملهم مردوداً عليهم، لأنهم أشركوا مع الله غيره، والله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً محضاً لوجهه الكريم، كما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: «أنا أغني الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه» [صحيح مسلم، 18/ 15].

إن المرأة المسلمة لتحذر في أعمالها الخيرة هذا المنزلق الخطير الذي تهوي فيه كثيرات من العاملات في الحقول الخيرة من حيث لا يدرين، إذ يتطلعن أحياناً إلى التنويه بجهودهن وذكر أسمائهن والإشادة بهن في المناسبات، ومن هنا يكون المنزلق والسقوط المريع.

وقد بسط رسول الله ﷺ القول في هذه المسألة بسطاً وافياً شاملاً، وبيّن الخزي الشنيع الذي يلقاه المراؤون يوم العرض لكبير، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وذلك في حديث أبي هريرة أيضاً الذي يقول فيه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وإن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به، فعرفه نعمته فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد

قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلّمه، قرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلّمت ليقال: عالِمٍ، وقرأت القرآن ليقال: قارئ! فقد قيل: ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت: ولكنك فعلت ليقال: جواد ! فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار» [صحيح مسلم: 13/ 50 كتاب الإمارة].

إن المرأة المسلمة النابهة التي استروحت نسمات الهداية الربانية من كتاب ربها وسنّة نبيها ﷺ لتنأى بنفسها من أن تنزلق إلى الرياء في أي شكل من أشكاله، وتزداد حرصاً على التجرد لله في جميع أعمالها، مبتغية بها وجهه الكريم مستهدية بقول الرسول ﷺ كلما لاح أمام ناظريها شبح الرياء المخيف: «من سَمَّعَ سمع الله به، ومن يرائي يرائي الله به» [متفق عليه، شرح السنّة، 10/ 323].

57

عادلة في حكمها

قد تضع الأقدار المرأة المسلمة في موضع يطلب منها أن تقول رأياً أو تصدر حكماً فيه، وهنا يتجلى إيمان المرأة المسلمة ورشدها وتقواها، فالمرأة المسلمة تحكم بالعدل، لا تجور ولا تتحيز، ولا تميل مع الهوى، مهما كانت الظروف والأحوال لأنها تعلم من هدي دينها أن العدل ومجانبة الظلم من لب الدين وصميمه، ونطقت النصوص الصريحة القاطعة في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ، وأمرت به أمراً لا مجال للترخص أو الاجتهاد فيه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ [النساء:58].

والعدل الذي فقهت كنهه المرأة المسلمة من هدي دينها عدل محض مجرد دقيق خالص لا يميل ميزانه الحب والبغض، ولا يؤثر في نصاعته ود أو قرابة أو نسب أو ميل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة:8].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ ﴾ [الأنعام:152].

وقد ضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى في العدل حين جاء أسامة بن زيد يستشفع في المرأة التي سرقت، وعزم رسول الله ﷺ على قطع يدها فقال له:

«أتشفع في حد من حدود الله ؟ وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» [متفق عليه، شرح السنّة، 10/ 328].

إن العدل العام المطلق الذي يطبق على الكبير والصغير، والأمير والسوقة، والمسلم وغير المسلم، ولا يفلت من قبضته أحد، وهذا مفرق الطريق بين العدل في المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات.

ومما وعاه التاريخ، وأنصتت له بإجلال محافل العدل في العالم عبر القرون وقفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ بجانب خصمه اليهودي الذي سرق درعه أمام القاضي شريح، الذي لم يمنعه إكباره وإجلاله لأمير المؤمنين أن يطلب منه البينة على سرقة اليهودي درعه، ولما لم يجد أمير المؤمنين البينة حكم القاضي لليهودي على أمير المؤمنين، والتاريخ الإسلامي حافل بأمثال هذه الأخبار الدالة على سيادة الحق والعدل في المجتمع الإسلامي.

ومن هنا كانت المرأة المسلمة الملتزمة بتعاليم دينها عادلة في أقوالها وأفعالها، يعزز هذه الخليقة فيها أن الحق قديم في تراثها، والعدل عريق في أمتها والحيدة عن الحق والعدل حرام في شريعتها.

58

لا تظلم

ويقدر حرص المرأة المسلمة على العدل في أقوالها وأفعالها، تجتنب فيهما الظلم، إذ إن الظلم ظلمات يوم القيامة، يتخبط بها الظالمون والظالمات كما بيَّن الهدي النبوي الكريم: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» [صحيح مسلم، 16/ 134]. ولقد حرّم الله الظلم تحريماً قاطعاً، لا مجال للاجتهاد أو التأويل فيه وذلك في الحديث القدسي: «يا عبادي، إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» [صحيح مسلم، 16/ 132].

وإذا كان الله الخالق الملك العزيز الجبار المتكبر قد حرّم الظلم على نفسه وجعله محرماً بين العباد، أفيسوغ للعبد الضعيف الفاني بعد ذلك أن يقع منه ظلم على أخيه الإنسان.

لقد نفى الرسول ﷺ وقوع الظلم من المسلمين والمسلمات على إخوان العقيدة والدين مهما تكن الدواعي والأسباب والظروف، إذاً لا يتصور وقوع الظلم من إنسان مسلم مستمسك بعروة دينه الوثقى.

«المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج على مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» [فتح الباري، 5/ 97].

لم يكتف رسول الله ﷺ بنفي الظلم عن الإنسان المسلم، رجلاً كان أو امرأة بل نفى خذلانه لأخيه، ففي هذا الخذلان ظلم وأي ظلم، ورغّب في

قضاء حاجة أخيه وتفريج كربته وستره، وكأنه يشير إلى أن التقاعس عن هذه الفضائل ظلم وتقصير وإجحاف في حق الأخوة التي تربط بين المسلم وأخيه.

ولقد رأينا النصوص تحض على العدل المطلق الذي لا يميل ميزانه حب أو بعض أو ميل أو قرابة أو نسب، ورأينا النصوص، في هذه الفقرة تنهى عن الظلم المطلق أيضاً، وهذا يعني تطبيق العدل على كل إنسان، واجتناب الظلم لكل إنسان ولو كان من غير المسلمين، فالله تعالى يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الظلم والإساءة لكل الناس.

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8].

59

تنصف من لا تحب

قد تفرض الحياة على المرأة المسلمة عشرة من لا تحب من النساء، كأن يجمعها في بيت واحد بامرأة من بيت حميها أو غيرها من النساء، لم يؤدم بينهما ولم ينفتح قلبها لها، وهذا أمر واقع في كثير من البيوت ولا سبيل إلى إنكاره فالأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، كما بيّن رسول الله ﷺ في الحديث على هديه في مثل هذه الحالة.

أتكون سلبية في تصرفاتها ومواقفها وردود أفعالها؟ أم تكون رفيقة آلفة مألوفة دمثة منصفة متعقلة، حتى مع من لا تحب؟

الجواب: أن المرأة المسلمة التي استنارت بهدي الإسلام، وتلقت روحها إشعاعاته السمحة الغراء، تكون منصفة متعقلة لبقة دمثة، لا تظهر ما في نفسها لمن تكره، ولا يصدر عنها تصرف أو موقف أو رد فعل بشيء مما يعتمل في نفسها من شعور بارد نحو المرأة التي لا تحب، بل إنها لتظهر بمظهر يخفي ما في نفسها من شعور بالكراهية أو عدم المحبة والارتياح، فتبش في وجه تلك المرأة وتتلطف معها، وتلين لها القول، وهذا هو الخلق الذي كان عليه الرسول وصحابته الأكرمون، فعن أبي الدرداء ﷺ قال: «إنا لنكشِّر في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم» [فتح الباري، 10/ 523]. وعن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال: «ائذنوا له، فبئس ابن العشيرة أو بئس أخو العشير» فلما دخل ألانَ له الكلام، فقلت يا رسول الله: قلت ما قلت، ثم ألنتَ له في القول فقال: «أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله من تركه - أو ودعه - الناس اتقاء فحشه» [فتح الباري، 10/ 528].

ذلك أن مداراة الناس وتألفهم والرفق بهم من أخلاق المؤمنين والمؤمنات، وخفض الجناح ولين الكلام وترك الإغلاظ للناس في الكلام من أهم أسباب الألفة والتحابب والتقارب التي حض عليها الإسلام، وأوصى المسلمين والمسلمات بالأخذ بها في معاملتهم للناس.

فالمسلمة التي صاغها الإسلام لا تنساق وراء عاطفتها في حب وكره، بل تكون معتدلة موضوعية عادلة واقعية منصفة في مواقفها وأحكامها على من لا تحب من النساء، تحكّم في ذلك كله عقلها ودينها، ومروءتها وخلقها، فلا تشهد إلا بالحق، ولا تحكم إلا بالقسط، ولا تدلي إلا بالإنصاف، متأسية في مواقفها وأحكامها بأمهات المؤمنين اللواتي كن في قمة الإنصاف والعدل والتقوى في حكم بعضهن بعضاً

فقد كانت السيدة عائشة أقرب زوجات النبي ﷺ إلى قلبه تنافسها في ذلك أم المؤمنين زينب بنت جحش، فكان من الطبيعي أن يكون بينهما غيرة ولكن هذه الغيرة لم تمنع إحداهما من أن تشهد شهادة الحق، فتصف أختها بالصفات التي كانت عليها لا تنقص منها شيئاً عُرفت به، ولا تحجب عنها فضيلة اتصفت بها.

ففي صحيح مسلم تقول السيدة عائشة عن زينب: «هي التي كانت تساميني في المنزلة عند رسول الله ﷺ ، ولم أرَ امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقةً وأشدَّ ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدّق به وتقربّ به إلى الله تعالى، ما عدا سورة من حِدَّةٍ كانت فيها تسرع منها الفيئة» [صحيح مسلم، 15/ 206].

وفي صحيح البخاري تقول السيدة عائشة في سياق حديثها عن الإفك الذي برّأها الله فيه من كل سوء، منوهة بشهادة زينب فيها:

وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: يا زينب ما علمت، ما رأيت؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيراً، ثم قالت السيدة عائشة: «وهي التي كان تساميني فعصمها الله بالورع» [فتح الباري، 8/ 455].

كان هذا الخلق والإنصاف والعدل في أمهات المؤمنين رضي الله عنهن مع الضرائر، وبينهن ما بينهن من غيرة وتنافس وحساسية، ولنا أن نتصور كم كانت أخلاقهن سامية مع غير ضرائرهن من النساء، إنهن ليضعن بسيرتهن المثلى هذه النساء المسلمات منهج التعايش الإنساني الراقي الذي يمتص الكراهية بتوسيع أفق العقل، ويحدُّ من غلواء الغيرة، إن وجدت، بتغليب الإنصاف والإحسان والتسامي، وبذلك تغدو المرأة المسلمة منصفة من لا تحب من النساء، أياً كانت درجة قرابتها لها أو علاقتها بها، عادلة في حكمها عليها رزينة دمثة في معاملتها إياها.

60

لا تشمت بأحد

المسلمة الصادقة التقية التي أشربت روحها هدي الإسلام الحنيف، وتخلقت بأخلاقه السمحة الغراء، لا تشمت بأحد من الناس، إذ الشماتة خلق وضيع مؤذ جارح لا يكون في المرأة التقية العارفة هدي دينها، وقد نهى عنه النبي ﷺ وحذر من الارتكاس فيه بقوله: «لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك» [رواه الترمذي، 4/ 662].

إن المرأة المسلمة التي هذّبها الإسلام لا مكان للشماتة في نفسها بل إنها لتعطف على اللواتي ابتلين، وترثي لحالهن، وتسارع إلى التخفيف عنهن، وتألم لألمهن، فالشماتة لا تظهر في النفوس المهتدية بهدي الإسلام، وإنما تظهر في النفوس المظلمة القاسية المتحجرة الحقود، المجبولة على الكيد والتفشي والحقد وحب الوقيعة والأذى والانتقام، والمرأة المسلمة التقية من هذا كله بريئة كل البراءة بعيدة كل البُعد.

61
تجتنب ظن السوء

ومن خلائق المرأة المسلمة الصادقة أنها لا تظن بالنساء ظناً لا يقوم على دليل بل إنها لتجتنب كثيراً من الظن، كما أمر الله في محكم كتابه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:12].

ذلك أنها تدرك أن رجم الناس بالظن قد يوقع الظان بالإثم، ولا سيما إذا أطلق هذا الظان لخياله عنان التصورات والأوهام والاحتمالات، فإذا هو يصم الناس بالعيب، ويلصق بهم تهماً، هم منها براء، وهذا هو ظن السوء المحرّم في الإسلام.

ولهذا اشتد رسول الله ﷺ في التحذير من الظن ورجم الناس بالغيب بعيداً عن الحقيقة واليقين، فقال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» [متفق عليه، شرح السنة، 13/ 109].

لقد عد النبي ﷺ أكذب الحديث الظن، والمسلمة الصادقة التقية تتحرى الصدق في أقوالها، فلا يجري على لسانها حديث فيه أثارة من كذب، فكيف تقع في أكذب الحديث؟

والهدي النبوي العالي، إذ يحذر من الظن، ويعده أكذب الحديث، يوجه المسلمين والمسلمات إلى الأخذ بالظاهر في أعمال الناس، والبُعد عن رميهم بالظنون والشكوك والأقاويل والأوهام، فليس من خلق الإنسان المسلم ولا من شأنه أن يكشف أسرار الناس ويغوص في خصوصياتهم، ويخوض في

أعراضهم، فالسرائر يعلم خبيئها، ويكشف عنها، ويحاسب عليها الإله الذي يعلم السر وأخفى، أما الإنسان فليس له من أخيه إلا الظاهر من عمله، وهذا ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذين استروحوا نسمات هذا الهدي نقية صافية من كل شائبة وكدر.

ومن هنا كانت المرأة المسلمة الواعية هدي دينها الآخذة بأسباب التقوى والعمل الصالح، متحرزة متحفظة في كل كلمة تتفوه بها تمس أختها المسلمة من قريب أو بعيد، متثبتة من كل حكم تطلقه في حق الناس، ذاكرة دوماً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:36].

فإذاً هي وقافة عند هذا النهي القاطع الحكيم، لا تتكلم إلا بعلم ولا تطلق حكماً إلا بيقين.

إن المرأة المسلمة التقية لتستشعر دوماً ذلك الملك الرقيب العتيد الموكل بإحصاء كل كلمة تظهر عن لسانها، وكل حكم يصدر عنها، فتزداد فزعاً وخشية من الوقوع في إثم الرجم بالظن.

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:18].

إن المرأة المسلمة لتقدر مسؤولية الكلمة التي تتفوه بها، لأنها تعلم أن هذه الكلمة التي تطلقها قد ترفعها إلى مقام رضوان الله عز وجل أو تهوي بها إلى درك سخطه وغضبه، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة» [رواه مالك في الموطأ، 2/ 985].

فما أعظم مسؤولية الكلمة، وما أكبر الآثار المترتبة على ما تقذف به الألسنة الثرثارة من أقاويل !

إن المرأة المسلمة التقية لا تلقي بالاً لأكثر ما يدور في المجالس من أقاويل وإشاعات وظنون وتخيلات، ولا سيما مجالس النساء الفارغات المتساهلات ولا ترضى لنفسها أن تحمل هذا الهذر من الأقاويل والشائعات فتروي شيئاً منه إذ لم يقم لديها دليل يرجح لديها الصحة والثبوت واليقين، بل إنها لتعد نقل ما تسمع من هذه الأقاويل قبل التثبت من صحته من الكذب المحرّم الذي نص عليه رسول الله ﷺ بقوله: «كفى بالمرء كذباً أن يحدّث بكل ما سمع» [صحيح مسلم، 1/ 73].

62

تمسك لسانها عن الغيبة والنميمة

المرأة المسلمة الواعية تخشى الله في السر والعلن وحريصة على ألا تخرج من لسانها كلمة فيها غيبة أو نميمة، تغضب بها ربها، وتجعلها في ذمة المغتابات النمامات اللواتي اشتدت نصوص الإسلام في وعيدهن.

إنها لتقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:12].

فتحس جريمة الغيبة بشعة مستكرهة، إذ تتمثل بأكل لحم أختها ميتة فإذا هي تسارع إلى التوبة التي ذيل الله بها الآية، وتلجأ إلى الاستغفار من ذنبها، إن زلّ لسانها بشيء من غيبة لأحد.

وتصغي إلى الهدي النبوي الكريم بقوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» [صحيح مسلم، 2/ 12].

فتحس أن الغيبة ذنب لا يليق بالمسلمة التي نطقت بالشهادتين، وإن من اعتادت الغيبة في مجالسها ليست في عداد المسلمات الصالحات.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ : حسبك من صفية كذا وكذا. قال بعض الرواة: تعني أنها قصيرة - فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» [رواه أبو داود].

وتستمع المرأة المسلمة إلى بيان السبع الموبقات التي دعا الرسول ﷺ إلى اجتنابها، فتجد أن هناك ما هو أشد من الغيبة وأخطر، وهو قذف المحصنات الغافلات المؤمنات، مما يقع فيه بعض النساء في مجتمعاتهن.

«اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول الله، ما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» [متفق عليه، شرح السنّة، 1/ 86].

إن المرأة المسلمة البصيرة المستوعبة هذا التوجيه الرفيع لتقف من الغيبة موقفاً جاداً، فلا تتورط بالوقوع في شكل من أشكالها، ولا تسمح لأحد أن يغتاب في مجلسها بل تذب عن أخواتها ألسنة البغي والعدوان، وتدفع عنهن قالة السوء، عملاً بقول الرسول ﷺ: «من ذب عن لحم أخيه بالغيبة كان حقاً على الله أن يعتقه من النار» [رواه أحمد، 6/ 461].

والمرأة المسلمة التقية تحفظ لسانها عن النميمة أيضاً إنها لتدرك خطورة النميمة في إفشاء الشر والسوء والفساد في المجتمع، وتقطع عرى المحبة والتواد بين أفراده، كما بيّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله، وشرار عباد الله المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة، الباغون البرآءَ العَنَتَ» [رواه أحمد، 4/ 227].

وحسب المرأة النمامة المفسدة بين الأحبة، الساعية في ذات البين حسبها خزياً في الحياة الدنيا، وسوء عاقبة في الآخرة، إن هي ظلت سادرة في غيها وضلالها ومشيها بالنميمة بين الناس، هذا الحديث الصحيح القاطع الذي يحرم كل نمام نعيم الجنة.

«لا يدخل الجنة نمام» [متفق عليه شرح السنة، 13/ 147].

ومما تنهلع له النفس المؤمنة، وتمتلئ رعباً وفزعاً من عواقب النميمة الوخيمة أن عذاب الله ينصب على كل نمام منذ أن يوسد في قبره، نجد ذلك في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عباس ﷺ.

قال: «مر رسول الله على قبرين، فقال: أما إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير. أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله، قال: فدعا بعسيب رطب فشقه اثنين ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً، ثم قال: لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا» [متفق عليه، شرح السنّة، 1/ 370].

63

تجتنب السباب والكلام البذيء

والمرأة المسلمة التي هذّبها الإسلام لا يجري على لسانها هجر في القول أو بذيء من الكلام، ولا تنال أحداً بسباب أو شتيمة، لأنها تعلم أن توجيهات الإسلام الخلقية، نفرت من ذلك تنفيراً شديداً، وجعلت السباب فسوقاً يقدح في حسن إسلام المرء، وصورت الفاحش البذيء مكروهاً ممقوتاً من الله عز وجل: فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» [متفق عليه، شرح السنة، 1/ 76].

وقال: «إن الله لا يحب كل فاحش متفحش» [رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات]، وقال: «إن الله تعالى يبغض الفاحش البذيء» [رواه الطبراني].

إنها صفات لا تليق بالمرأة المسلمة التي استروحت نسمات الهداية الربانية من هدي الإسلام وخالطت بشاشة الإيمان قلبها، وهذبت تعاليم الشريعة السمحة لسانها ومشاعرها، ومن هنا كانت بعيدة عن كل مهاترة أو مشاحنة رخيصة تتقاذف فيها الشتائم والكلام الرخيص، وتزداد المرأة المسلمة بعداً عن هذا التردي والانحطاط الخلقي كلما تجسدت لها الأسوة الحسنة في أقوال الرسول ﷺ ، وأفعاله وسيرته العطرة، فقد عُرف عنه أنه لم تخرج عنه يوماً كلمة جارحة، تؤذي مشاعر إنسان أو تخدش سمعته أو تمس كرامته بسوء.

يقول أنس بن مالك ﷺ الذي كان ملازماً للرسول ﷺ سنين طويلة: «لم يكن النبي ﷺ سباباً ولا فحاشاً ولا لعاناً، كان يقول لأحدنا عند المَعْتَبَة: ما له؟ تَرِب جبينُه» [فتح الباري، 10/ 452].

بل إن الرسول ﷺ نزه لسانه عن لعن المشركين الذين أعرضوا عنه، وأوصدوا قلوبهم عن سماع دعوته، فلم ينلهم بأذى، ولم يوجه إليهم كلمة جارحة، أخبر بذلك الصحابي الجليل أبو هريرة، إذ قال: قيل: يا رسول الله ادع على المشركين قال: «إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة» [صحيح مسلم، 16/ 150].

ويسمو رسول الله ﷺ في اجتثاث شأفة الشر واستئصال جذور الحقد والعدوان من النفوس حتى يبلغ الذروة، إذ يصور للمسلمين أن الذي أطلق العنان للسانه في العدوان على الناس وأعراضهم وأموالهم هو المفلس الحقيقي الذي خسر الدنيا والآخرة، إذ محقت اعتداءاته الرعناء على الناس ما حصّله في حياته من حسنات، وأحبطت عمله كله، وتركته يوم الحساب الرهيب مكشوفاً لا عاصم له من النار.

يقول رسول الله ﷺ : «أتدرون من المفلس، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام، يأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طرح في النار» [صحيح مسلم، 16/ 135].

لا جرم أن تنتفي من حياة المسلمات الصادقات اللواتي ارتوين من نبع الإسلام الصافي النمير هذه التفاهات الفارغة، وتختفي المشاحنات والخصومات المؤدية إلى السباب والشتائم في المجتمع الإسلامي النسوي القائم على الفضيلة والتهذيب واحترام المشاعر الإنسانية، والرقي الاجتماعي في التعامل والخطاب.

64

لا تسخر من أحد

إن شخصية المرأة المسلمة التي أشربت حب التواضع، والبُعد عن التكبر والخيلاء لا يمكن أن تسخر من أحد، ذلك أن الهدي القرآني الذي غرس فيها حب التواضع وكراهية الكبر، هو الذي عصمها من السخرية بالنساء واحتقارهن والاستعلاء عنهن:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات:11].

ومن مناهل الهدي النبوي تستنبط أيضاً خلق التواضع، ولين الجانب وتتجافى عن الكبر والسخرية واحتقار الناس، لأن احتقار المسلمات شر محض.

65

بعيدة عن المباهاة وحب الظهور

من صفات المرأة المسلمة الداعية المتخلقة بأخلاق الإسلام السمحة أنها متواضعة واقعية صادقة لا تعرف الاستعلاء ولا الغرور ولا الكذب، فهي لا تتكثّر بما ليس عندها، ولا تدعي ما ليس لها، ولا تنتفش بالباطل أمام أترابها، وإنها لتجتنب هذه الخليقة القبيحة الذميمة، لأنها لا تلائم نفسيتها التي كونتها قيم الإسلام ومبادئه، فقد جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تسأله أن تقول: إن زوجها أعطاها ما لم يعطها، وتريد بذلك المفاخرة والإدلال والمباهاة، فأجابها الرسول ﷺ: «المتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور» [صحيح مسلم، 14/ 110].

إن الإسلام دين يقوم على الصدق والنقاء والتواضع والواقعية، ويكره الكذب والغش والتشامخ والتكبر والخيلاء والادعاء بالباطل، ومن هنا كره لأبنائه وبناته خلق التفاخر بالباطل، والتشامخ على العباد، والزهو والتكاثر وحب الظهور، واشتد في ذم الإنسان المتخلّق بهذا الخلق، كما يُذم من لبس ثوبي زورٍ.

66

تجنب التنطع والتكلف

ومن هنا كانت المرأة المسلمة الراشدة طبيعية في خلقها وتصرفاتها وأعمالها لا تنطع في كلامها، ولا تتكلف النطق المصطنع جلباً للانتباه وحباً بالظهور، فالتكلف ممقوت في كل شيء، والتنطع ممجوج لدى ذوي الفطرة السليمة، وما تنطع امرأة في كلامها، أو تتكلف وتتصنع في تصرفاتها، إلا وفي طبيعتها خلل، وفي فطرتها التواء، وفي تكوينها الخلقي والنفسي نقص، ولذلك اشتد رسول الله ﷺ على المتنطعين والمتنطعات، وتابعه في هذه الشدة مَن بعده صاحباه الجليلان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، حتى إن عبدالله بن مسعود يقول: «والذي لا إله إلا هو ما رأيت أحداً كان أشد على المتنطعين من رسول الله ﷺ ، ولا رأيت أحداً أشد عليهم من بعده من أبي بكر، وإني لأظن عمر كان أشد أهل الأرض خوفاً عليهم أو لهم» [رواه الطبراني].

67

شخصيتها محببة للناس

تحرص المرأة المسلمة على أن تكون محبة للناس، بما تقوم به من عمل صالح، وبما تتركه في أوساطه من أثر نافع، وما تشيعه في مجتمعاتهم من سمعة حسنة.

ومحبة الناس لها دليل على محبة الله، إذ وضع لها القبول في الأرض، فإذا قلوب الناس تنفتح مغاليقها لها، وإذا هي محبوبة لكل من عرفها أو سمع بها من الناس، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً في الأرض، فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض» [صحيح مسلم، 16/ 184].

ولا يظفر بمحبة الله إلا من أقبل عليه يبتغي رضاه، ولا يبوء ببغضائه إلا من أعرض عن هديه وعصاه.

ولن تكون البشرى بمحبة الله ورضوانه إلا للمؤمنين والمؤمنات، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وحمدهم الناس على أعمالهم، فهؤلاء يُعجل الله لهم البشرى بالخير في حياتهم فيخدمهم الناس ويحبونهم، كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي ذر قال: قيل لرسول الله ﷺ : «أرأيت الرجل يعمل العمل في الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: تلك عاجل بشرى المؤمن» وفي رواية لمسلم أيضاً: «ويحبه الناس عليه» [صحيح مسلم، 16/ 189].

والمرأة المسلمة المتحلية بمكارم الأخلاق، الواقفة عند حدود الله، المتبعة ما أمر به، والمنتهية عما نهى عنه، هي المرأة الجديرة بعاجل البشرى هذه، وهي المحبة إلى من عرفها أو سمع عن أعمالها الصالحات، من تسامح وإعراض عن الجاهلات، ومقابلة السيئة بالحسنة، وعطف على البائسات والمحرومات، وحب الخير للناس، وإيثار على النفس، وقول المعروف والإيجاز في القول، والعدل في الحكم والإنصاف في المعاملة، وتجنب الغيبة والنميمة وتجريح الناس إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة التي حضّ عليها الإسلام وجعلها حلية ثمينة يزدان بها جيد كل امرأة مسلمة فقهت أحكام دينها، ووعت هديه العظيم، فكسبت محبة الناس في الدنيا ورضوان الله وجناته في الآخرة.

68
آلفة ومألوفة

والمرأة المسلمة الحصيفة اللبقة آلفة مألوفة، تألف النساء، وتخالطهن، وتوادهن ويألفنها ويخالطنها، ويوادونها لما تتمتع به شخصيتها من دماثة وجاذبية ورقة حسن عشرة، وهذا أوفى ما تصل إليه المرأة من صفات اجتماعية، تؤهلها للاتصال بالمجتمعات النسائية، وكسب ثقتها والتأثير فيها، ذلك أن هذه المجتمعات لا تسمع إلا لمن تألفها من النساء، وتثق بها وتطمئن إليها. ولا تقتنع بكلام إلا إذا صدر عن امرأة تحمل لها هذه المجتمعات شيئاً من الثقة والود والاحترام والتقدير.

ومن هنا جاءت النصوص تعلي من شأن هذه الفئة الدمثة المختارة التي تألف وتؤلف، سواء أكانت من الرجال أم النساء، وتجعلها من أحب الفئات إلى نفس رسول الله ﷺ، ومن أقربها منه مجالس يوم القيامة.

«ألا أخبركم بأحبكم إليّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، فأعادها ثلاثاً أو مرتين، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: أحسنكم خلقاً» [رواه أحمد بإسناد جيد، 2/ 185].

وزادت بعض الروايات: «الموطؤون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون».

إن من أهم صفات المرأة المسلمة أن تكون محبوبة آلفة ومألوفة، تحب النساء ويحببنها ويقبلن عليها كلما أتيحت لهن فرصة ليعببن من حديثها الطلي، وتوجيهها الشائق، وعملها النافع، ومثل هذه المرأة المسلمة المتألقة تستطيع أن

تؤدي رسالة، وتسدي نفعاً، وترجي لنهضة، وتقوم بتوعية، وهذا شأن المرأة المسلمة الواعية المستنيرة بهدي دينها، آلفة مألوفة، ومن لم تكن كذلك فلا خير فيها كما جاء في الحديث الشريف «المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» [رواه أحمد].

ولقد ضرب الرسول ﷺ لأمته المثل الأعلى في حسن سلوكه مع الناس وبراعته في تأليف القلوب، ودعاها للتأسي به في القول والعمل والسلوك، ورسم لها السبيل القصد في كيفية التسرب إلى قلوب الناس، والوصول إلى حبهم وإعجابهم ومودتهم، فقد كان صلوات الله عليه دائم البِشْر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يعطي كل جلسائه نصيبه، ولا يحسب جليسه إن أحداً أكرم عليه منه، من سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو بميسور من القول، قد وسع الناس من بسطة وخلقة، فصار لهم أباً أو صاروا له عنده في الحق سواء، الناس في مجلسه متعادلون، يتفاضلون بالتقوى، متواضعون، يوقرون الكبير ويرحمون الصغير، يؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون القريب.

وكان صلوات الله عليه لا يُؤْيَس منه راجيَة، ولا يخيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث، المراء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك من الناس ثلاثاً، كان لا يذم أحداً، ولا يعيِّره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا تكلم سكتوا وإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، حتى أن أصحابه ليستحلبونه في المنطق، ويقول: إذا رأيتم صاحب حاجة فأرْفدوه، ولا يقبل الثناء ولا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوزه فيقطعه بانتهاء أو قيام» [حياة الصحابة، 1/ 22].

ولا ريب أن المرأة المسلمة الناضجة على هدي النبوة، تترسم خطا نبيها الأمين صلوات الله عليه، في معاملته الناس، صالحهم وطالحهم، فتكون محبوبة مألوفة مقبولة مقدّرة في المجتمعات النسائية التي عرفتها أو سمعت عنها.

69

تحفظ السر وترعاه

لا يغيب عن بال المرأة المسلمة الواعية أن حفظ السر من أجمل الأخلاق والسجايا التي يتحلى بها الإنسان، ذلك أن حفظ السر يدل على نضج الشخصية، ومتانة الخلق ورزانة المسلك ورجاحة العقل. ومن هنا كانت المرأة المسلمة التي ارتشفت رحيق هدي الإسلام حافظة للسر الذي دعا الإسلام إلى حفظه، وتجسد في صفوة شخصيات الإسلام خلقاً بارزاً منهم، وسجية من أجمل سجاياهم.

ومن أبرز الشواهد تحلي الصحابة الأولين بفضيلة حفظ السر وإصرارهم على التمسك بهذه الفضيلة، موقف أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما حين عرض عمر ﷺ عليهما الزواج من ابنته حفصة بعد أن تأيمت وكتمانهما سر رسول الله ﷺ.

ويروي الإمام البخاري عن عبدالله بن عمر ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ حين تأيمت بنته حفصة قال: «لقيت عثمان بن عفان ﷺ فعرضت عليه حفصة، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، قال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي ثم لقيني، فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا، فلقيت أبا بكر الصديق فقلت له: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر ﷺ ، فلم يرجع إليّ شيئاً. فكنت عليه أوجد مني على عثمان، فلبثت ليالي، ثم خطبها النبي ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة فلم أرجع إليك شيئاً، فقلت: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك

فيما عرضت عليّ إلا أنني كنت علمت أن النبي ﷺ ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ ولو تركها النبي ﷺ لقبلتها» [فتح الباري، 9/ 175].

لم تقتصر فضيلة حفظ السر على الرجال من السلف، بل شملت النساء والأطفال الذين عبُّوا من هدي الإسلام، واستنارت قلوبهم وعقولهم بنوره.

إذا كان إفشاء الأسرار من أسوأ العادات التي يُبتلى بها الإنسان، فإن أبشع أنواع إفشاء الأسرار ما كان من متعلقات الحياة الزوجية، وإن المبتلي بهذه العادة القبيحة لمن شرار الناس منزلة يوم القيامة، كما بيّن رسول الله ﷺ بقوله: «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه، ثم ينشر سرها» [صحيح مسلم، 10/ 8].

ذلك أن الخصوصيات ينبغي أن تبقى مخفية مطوية لا يعلمها إلا أصحابها، وما ينشر خصوصياته على الناس إلا إنسان في عقله لوثة من جنون، وفي خلقه وصمة من طيش، وفي شخصية ضرب من ميوعة وتفاهة، والمسلمون والمسلمات في نجوة من هذا كله وعصمة بما لقنوا من هدي دينهم، وما تحلّوا به من خلائقه الغر الحسان.

70

طلقة الوجه

لا يخفى على المرأة المسلمة النبيهة أن من أهم عوامل نجاحها في حياتها الخاصة مع زوجها، وحياتها الاجتماعية العامة، أن تكون طلقة الوجه مفترة الأسارير تعلو الابتسامة محياها، ويطفح البِشْر من ثغرها، فهذا كله مما يجعلها محببة للناس قريبة من قلوبهم، وهو أيضاً من حسن الخلق وجمال الشخصية وجاذبية الخلقة ومن المعروف الذي حض عليه الإسلام.

ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» [صحيح مسلم، 16/ 177].

لقد كان من هدي الرسول الكريم ﷺ أن يبش الإنسان المسلم في وجه أخيه، وكان صلوات الله عليه لا يكاد يلقى أحداً من أصحابه إلا وهو مبتسم باش الوجه، كما في الحديث الذي رواه الشيخان عن الصحابي الجليل جرير بن عبدالله أنه قال: «ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي» [فتح الباري، 10/ 504].

إن المرأة المنبسطة الأسارير لتدخل البهجة إلى قلب زوجها كلما وقعت عينه عليها، فتزداد لديه محبةً وإعزازاً وتكريماً، وهذا شأنها في المجتمع النسوي الذي تعيش فيه أيضاً، إذاً ما من شيء يشيع المودة والتعاطف والتحابب في المجتمع مثل الوجه الباش، والنفس المنشرحة المفتوحة، والخلق العالي، وإنها لسمات وخصائص وصفات ألين ما تكون بالمرأة المسلمة الواعية، ذلك أنها بهذه السمات والخصائص والصفات تستطيع النفاذ إلى القلوب، والتغلغل في مسارب النفوس.

71

خفيفة الظل

والمرأة المسلمة خفيفة الظل، رقيقة المعشر، عذبة الحديث، لا تأنف من ممازحة أخواتها وصديقاتها في أوقات يحسن فيها المزاح، وتلطف المداعبة، ويستحب الترفيه عن النفوس.

على أن مزاح المرأة المسلمة يتميز بالصبغة الإسلامية المشروعة السمحة التي لا تهبط بها إلى التفاهة والسخف والابتذال.

لقد كان الرسول ﷺ يداعب صحابته الكرام، ولكنه لا يخرج في مزاحه ومداعبته عن دائرة الحق، وقد أثر من الصحابة قولهم للرسول الكريم: إنك تداعبنا، فقال: «إني لا أقول إلا حقاً» [أخرجه البخاري، 1/ 365].

وكذلك كان الصحابة الكرام، ولهم في الممازحة والمداعبة أخبار طريفة ممتعة، كانت تجري بينهم وبين الرسول الكريم ﷺ.

جاء رجل إلى النبي ﷺ يستحمله، فقال له النبي ﷺ ممازحاً: «أنا حامِلك على ولد ناقة»، فقال: يا رسول الله، ما أصنع بولد ناقة، فقال الرسول ﷺ: «وهل تلد الإبل إلا النوق» [أخرجه البخاري، 1/ 366].

لقد كان الرسول ﷺ وهو إمام المسلمين وقائدهم ومعلمهم، يمزح أحياناً ويمرح أحياناً أخرى، ما كانت تشغله الأعباء القيادية الجسام التي ينهض بها لإنشاء أمة الإسلام وإقامة دولته، وتوجيه كتائب الجهاد، وغير ذلك من الأعمال الجليلة ما كان يشغله هذا كله عن المداعبة اللطيفة والممازحة

المتعة، يدخل بها السرور على نفوس أصحابه أحياناً، وعلى نفوس زوجاته أحياناً أخرى.

فمن ذلك ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت: «أتيت النبي ﷺ بحريرة قد طبختها له، فقالت لسودة رضي الله عنها، والنبي ﷺ بيني وبينها: كلي، فأبت، فقلت: لتأكلن أو لألطخن وجهك، فأبت، فوضعت يدي في الحريرة، فطليت وجهها، فضحك النبي ﷺ فوضع بيده لها، قال لها: الطخي وجهها، وفي رواية: فخفض لها ركبته لتستقيد مني، فتناولت من الصفحة شيئاً، فمسحت به وجهي، ورسول الله ﷺ يضحك» [رواه أبو يعلى].

وبعد ذلك تحرص المرأة المسلمة أن تضفي على شخصيتها مزيداً من الجاذبية والجمال والتأثير، إن هذه الشواهد لدليل ناصع على سماحة الإسلام وأهله وعلى ما يريده الإسلام لأبنائه وبناته من خفة الظل ومرح النفس، وعذوبة الروح، وإنها لصفات محببة للمرأة المسلمة المعاصرة الجادة.

72
تُدخل السرور على القلوب

تحرص المرأة المسلمة في أحاديثها ومناقشتها للنساء على نشر المسرة في أوساطهن وإشاعة الحيوية والبهجة والنشاط في نفوسهن، بما تزجي إليهن من أخبار مفرحة، وما تسوق من دعابات طريفة ممتعة، فإدخال السرور على القلوب في إطار ما أحل الله مطلب إسلامي حض عليه الشرع الحنيف، ورغب في فعله، لتبقى أجواء المؤمنين والمؤمنات عامرة بالمودة نديّة بأنسام المسرة، مترعة بالبشر والتفاؤل، مهيأة لتقبل العمل الجاد وما يتطلب من تضحيات وتكاليف.

ومن أجل ذلك كافأ الإسلام من يدخل السرور على قلوب المسلمين والمسلمات أن يظفر بسرور أكبر، يدخله الله عز وجل على قلبه يوم القيامة: «من لقي أخاه المسلم بما يحب الله ليسره بذلك، سَرّه الله عز وجل يوم القيامة» [رواه الطبراني].

إن المرأة المسلمة الذكية لتجد ضروباً من المسرات الحلال تستطيع أن تدخلها على قلوب أخواتها، بالتحية الحارة، والكلمة الطيبة، واللفتة الذكية، والنكتة البارعة والبشرى السارة، والبسمة الودود، والزيارة الخالصة مما يفتح مغاليق القلوب، ويلقي بذور المحبة ويصل حبل الود، ويمتّن وشائج الأخوة.

73

غير متزمتة

من صفات المرأة المسلمة الواعية هدي دينها أنها غير متزمتة، لا تتشدد في أمور أباحها الشرع الحنيف، ورخص بها في المناسبات، كالغناء المباح في الأعياد والأعراس والأفراح، وشهود بعض الألعاب المرفّهة التي لا يصاحبها فساد ولا تنجم عنها فتنة.

وهي إذ تأخذ بشيء من اللهو المباح في مناسبات معينة، ولا تجعل اللهو همها وديدنها، تكون متبعة لهدي دينها الذي رخص باللهو في بعض الأحيان إذ جاء بذلك عديد من الأحاديث الصحاح.

ففي صحيح البخاري أن السيدة عائشة أم المؤمنين زفت امرأة، كانت يتيمة في حجرها إلى رجل من الأنصار، فقال رسول الله ﷺ : «يا عائشة، ما كان معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو» [فتح الباري، 9/ 225].

وروى البخاري قول السيدة عائشة «وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدّرق والحراب، فإما سألت النبي ﷺ وإما قال: تشتهين تنظرين، فقلت: نعم فأقامني وراءه، خده على خدي، وهو يقول: دونكم يا بني أرفدة، حتى إذا مللت قال: حسبك؟ قلت: نعم. قال: فاذهبي» [فتح الباري، 2/ 440].

وفي فتح الباري روى السراج من طريق أبي الزناد عن عروة عن عائشة أنه ﷺ قال يومئذ: «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إني بعثت بحنيفية سمحة» [فتح الباري، 2/ 444].

إن هذه النصوص وأمثالها مما وعته كتب الحديث لهي شواهد واضحة على حسن الرسول الزوج ﷺ ، وتلطفه بزوجته، وحرصه على سعادتها وسرورها

وهي شواهد أيضاً على سماحة الإسلام وفسحته ويسره، وحفاوته بالمرأة إذ أباح لها الاستمتاع بشيء من اللهو، مما يعدّه بعض المتزمتين اليوم جريمة نكراء، تعاقب عليها المرأة بالحبس الشديد.

إن من شأن المرأة المسلمة الواعية بهدي دينها، أن تكون في أغلب أحوالها جادة منصرفة إلى معالي الأمور، معرضة عن سفسافها، ولكن هذا لا يمنع أن تلهو في مناسبات، أباحها الشرع الحنيف، وجعل فيها للمسلمين والمسلمات فسحة وسعة، وذلك أن المشرّع الحكيم يعلم جبلاّت النفوس وميلها إلى التخفف والترويح والتسلية والترفيه بين الحين والحين، لتعود بعد ذلك إلى الجد، وهي أوفر نشاطاً وأمضى عزيمة، وأكثر استعداداً لتحمل الأعباء والنهوض بالمسؤوليات وهذا ما حققه الإسلام للإنسان في منهجه المتوازن المعتدل الشامل الحكيم.

74

تحترم ذاتها ونفسها

لقد حض الإسلام المسلمين على أن يكونوا شامة في الناس، متميزين في زيهم وهيئاتهم وتصرفاتهم وأعمالهم، ليكونوا قدوة حسنة، تجعلهم جديرين بحمل رسالتهم العظمى للناس، وفي حديث الصحابي الجليل ابن الحنظلية أن النبي قال لأصحابه وكانوا في سفر قادمين على إخوانهم: «إنكم قادمون على إخوانك، فأصلحوا رحالكم وأحسنوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش» [رواه أبو داود، 4/ 83].

والرحال هنا: ما يوضع على ظهر الجمل عند ركوبه، والفحش والتفحش: كل ما يشتد قبحه.

فقد عدّ رسول الله ﷺ الهيئة الرديئة والحالة الزرية وإهمال العناية بالمظهر، والتبذل في اللباس، أو المرافق المفروشة، فحشاً وتفحشاً، وهو مما يكرهه الإسلام الحنيف، وينهى عنه.

وإذا كان الإسلام قد حض المسلمين بعامة على أن يكونوا شامة في الناس، فقد حض المرأة المسلمة بخاصة على أن تكون شامة بارزة ظاهرة متميزة في شكلها ومظهرا وهيئتها، لأن ذلك ينعكس على حياتها وحياة زوجها وبيتها وأولادها.

ومن هنا لا تهمل المرأة نفسها، ولا تغفل عن مظهرها الحسن النظيف في غمرة شواغل البيت وأعباء الأمومة، بل تحرص على أن تكون حسنة المظهر من

غير سرف ولا مبالغة، وعنايتها بمظهرها الحسن ينبئ على فهمها لشخصيتها، ويدل على ذوقها ودقة نظرتها لمهمتها في الحياة، وسلامة تصورها لشخصية المرأة السوية التي لا ينفصل مظهرها عن مخبرها، إذ الشكل النظيف الحسن المرتب أليق بالمحتوى الجليل والجوهر النبيل، ومنهما معاً تتكون شخصية المرأة المسلمة الواعية.

فالمرأة المسلمة الذكية الحصيفة هي التي توازن بين مظهرها ومخبرها وتدرك أنها مكونة من جسم وعقل وروح، فتعطي لكل حقه، ولا تغالي في جانب من هذه الجوانب على حساب جانب، مستهدية في هذا التوازن بهدي الإسلام الحنيف الذي حض على هذا التوازن ورغّب فيه.

فكيف تحقق المرأة المسلمة هذا التوازن بين جسمها وعقلها وروحها؟

75

تعتني بجسمها
(معتدلة في طعامها وشرابها، تزاول الرياضة البدنية)

تحرص المرأة المسلمة كل الحرص على أن تكون صحيحة البدن وقوية البنية، نشيطة غير مترهلة، ولا ثقيلة الوزن، ولذا لا تقبل على الطعام بشره ونهم وإسراف، بل تصيب منه ما تقيم به صلبها، ويحفظ عليها صحتها ونشاطها وقوتها ولياقة جسمها، مستهدية بقول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:31].

ويقول رسول الله ﷺ وهادياً إلى الاعتدال بالطعام والشراب: «ما ملأ آدمي وعاءً شرّاً من بطنه، فإذا كان لا محالة فاعلاً، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» [رواه أحمد، 4/ 132].

ويقول عمر رضي الله عنه: «إياكم والبطنة في الطعام والشراب، فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيها، أصلح للجسد، وأبعد من السرف وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه» [كنز العمال، 15/ 433].

ولا ريب أن المرأة المسلمة بعيدة كل البُعد عن المخدرات والمنبهات، وبعيدة عن العادات الدخيلة على مجتمع الإسلام والمسلمين، كالسهر الطويل الفارغ في اللهو والعبث وقتل الوقت، فهي تنام مبكرة وتستيقظ مبكرة لتزاول نشاطها اليومي، وتقوم بواجباتها في حيوية وفعالية وانشراح، لا يطفئ شعلة

نشاطها سهر طويل، ولا تضعف قواها عادة سيئة، فهي دوماً نشيطة منجزة فعالة، لا تؤودها أعمال البيت، لأنها أخذت نفسها بنظام صحي طبيعي، يمدها دوماً بالحيوية والقوة والنشاط.

ولا يغيب عن بال المرأة المسلمة أن احتفاظها بلياقتها البدنية ونشاطها الجسمي وصحتها العامة من الأمور التي حضّ عليها الإسلام ورغّب فيها، ولذا فهي لا تكتفي في سبيل تحقيق ذلك باتباع النظام الصحي الطبيعي الذي ألمعت إليه آنفاً، بل تزاول من الرياضة البدنية ما يناسب جسمها ووزنها وسنّها وبيئتها الاجتماعية، في أوقات محددة، ومواعيد ثابتة لا تتخلف، لتهب هذه التمارين الرياضية جسمها الرشاقة والمرونة والجمال، وتمنح صحتها القوة والمناعة من العلل والأمراض، وتجعلها أقدر على القيام بواجباتها، وأكثر لياقة في أداء رسالتها في الحياة سواء أكانت زوجة أم أماً.

76

نظيفة الجسم والثياب وتهتم بتحسين شعرها

المرأة المسلمة الواعية المتدبرة نظيفة جداً في جسمها وثيابها وشعرها، تستحم في فترات متقاربة، وتحرص على نظافة بدنها وثيابها، مستجيبة في ذلك لهدي النبي ﷺ الذي حث على الاستحمام والتطيب وبخاصة في الجمعة: «اغتسلوا يوم الجمعة، واغسلوا رؤوسكم، وإن لم تكونوا جنباً، وأصيبوا من الطيب» [فتح الباري، 2/ 370].

«من أتى الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل» [فتح الباري، 2/ 356].

وبلغ من شدة حضه على النظافة بالاستحمام أن بعض الأئمة ذهب إلى أن الاغتسال واجب لصلاة الجمعة.

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً، يغسل فيه رأسه وجسده» [متفق عليه، شرح السنة، 2/ 166].

ذلك أن النظافة من ألزم صفات الإنسان وبخاصة المرأة، وأكثرها دلالة على شخصيتها السوية الذكية، وهي لا تجعلها محببة إلى نفس زوجها فحسب، بل إلى نفوس كل من عرفها من النساء، وذوي رحمها من الرجال.

ولقد كان من هدي هذا الرسول العظيم أمره ﷺ برعاية الشعر من إصلاحه وتجميله التجميل المشروع في الإسلام وذلك في الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «من كان له شعر فليكرمه» [رواه أبو داود، 4/ 107].

وإكرام الشعر في الذوق الإسلامي يكون بتنظيفه وتمشطيه وتطييبه وتحسين شكله وهيئته. وقد كره النبي ﷺ أن يدع الإنسان شعره مرسلاً مهملاً شعثاً منفوشاً؛ بحيث يبدو للأعين كأنه الغول الهائج، وذلك في الحديث الذي رواه الإمام مالك في الموطأ مرسلاً عن عطاء بن يسار قال: كان رسول الله ﷺ في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية فأشار إليه الرسول بيده، كأنه يأمر بإصلاح شعره ولحيته ففعل ثم رجع، فقال النبي ﷺ : «أليس هذا خير من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان؟» [الموطأ، 2/ 949].

وواضح أن في تشبيه الرسول ﷺ الرجل المنتفش الشعر بالشيطان تعبيراً عن شدة عناية الإسلام بحسن المظهر وجمال الهيئة وإنكار التبذل وقبح المظهر.

ولقد كان الرسول ﷺ دائم التنبه إلى هذه الملاحظة الجمالية في هيئة الإنسان ما رأى رجلاً زري الهيئة، مهملاً ترجيل شعره إلا أنكر عليه إهماله وتقصيره وزرايته بنفسه.

وإذا كان هذا هديه صلوات الله عليه للرجال فكيف يكون هديه للنساء وهن كما سلفت الإشارة موضع الزينة والتألق والجمال وهن اللواتي يسكن إليهن الرجال، فيجدون في مجالستهن والعيش معهن السكن والمتعة والأنس والسرور والانشراح؟ ولا يخفى على المرأة المسلمة أن جمال شعر المرأة من أهم مقومات جمالها وتحسينه من أبرز عوامل الجاذبية فيها.

77

حسنة الهيئة

لا شك أن تكون المرأة المسلمة الواعية معنية بلباسها ومظهرها وحسنة الهيئة أنيقة المظهر، من غير تبرّج ولا مغالاة ولا إسراف، ترتاح لمرآها عينا زوجها وأولادها ومحارمها وغيرهم من النساء المسلمات، وتأنس بها النفوس، فهي لا تغدو على الناس الذين يحل لهم رؤيتها في هيئة مزرية قميئة مهلهلة بل تتفقد نفسها، وتصلح من شأنها، عملاً بهدي الإسلام الحنيف الداعي إلى حسن المظهر والزينة الحلال.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف:32]: «روى مكحول عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب، فخرج يريدهم وفي الدار ركوة فيها ماء، فجعل ينظر في الماء، ويسوي لحيته وشعره، قالت عائشة: فقلت له: يا رسول الله، وأنت تفعل هذا؟ قال: نعم، إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه، فإن الله جميل يحب الجمال» [تفسير القرطبي، 7/ 197].

والمسلم يفعل هذا كله وفق نظرية الإسلام الوسط في الأمور كلها وهي نظرية الاعتدال التي لا إفراط فيها ولا تفريط، وتتمثل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:67].

لقد أراد الإسلام لأبنائه وبناته، ودعاته على وجه الخصوص، أن يغشُوا المجتمعات وهم شامات مشتهاة، لا مناظر مؤذية تقتحمها الأعين وتصد عنها النفوس فليس من الإسلام في شيء أن يسف الإنسان في مظهره، رجلاً كان أو

امرأة إلى درجة الإهمال المزري بصاحبه بدعوى أن ذلك من الزهد والتواضع، فرسول الله ﷺ هو سيد المتواضعين، كان يلبس اللباس الحسن، ويتجمل لأهله وأصحابه، ويرى في هذا التجمل وحسن الهندام إظهاراً لنعمة الله.

«إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» [رواه الترمذي، 4/ 206].

هذا ما فهمه الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان وساروا على دربهم. ومن هنا كان الإمام أبو حنيفة ﷺ حسن الهيئة والثياب، طيب الريح حريصاً على دوام التجمل في الملبس، بلغ من حرصه على إصلاح الشأن وتحسين الثياب والهندام أنه كان يحث الناس على ذلك، ولقد رأى يوماً أحد جلسائه في ثياب رثة، فانفرد به وقدم إليه ألف درهم ليصلح بها هيئته، فقال الرجل: إني موسر وفي نعمة، ولا أحتاج إليها، فقال له أبو حنيفة معاتباً: أما بلغك الحديث «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» فينبغي لك أن تغير حالك حتى لا يغتم بك صديقك.

وبديهي أن الدعاة إلى الله من الرجال والنساء ينبغي أن يكونوا على أحسن هيئة وأجمل مظهر، وأتم أناقة، وأكثر جاذبية من غيرهم ليكونوا أقدر على التغلغل في مسارب القلوب والوصول بدعوتهم إلى دخائل النفوس.

بل إنهم لمطالبون دون غيرهم بأن يكونوا كذلك، وإن لم يظهروا على الناس، فالدعاة إلى الله ينبغي أن يعنوا بهيئاتهم ونظافة أبدانهم وثيابهم وأظافرهم وشعورهم، ولو كانوا في خلوة مع أنفسهم، مستجيبين بذلك لنداء الفطرة السليمة، التي أخبر بها وبمستلزماتها الرسول ﷺ.

«خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد (حلق العانة) ونتف الإبط وتقليم الأظافر وقص الشارب» [فتح الباري، 10/ 334].

فرعاية جمال الفطرة الإنسانية مما حبب به هذا الدين ورغّب فيه كل ذي طبع راقٍ وذوقٍ سليم.

78

تتعهد عقلها بالعلم

لا يغيب عن المرأة المسلمة أن تتعهد عقلها بالعناية كما تعهدت جسمها، ذلك أن العناية بالعقل لا تقل أهمية عن العناية بالجسم.

والمرء بأصغريه: قلبه ولسانه كما يقال، أي: بعقله وتفكيره ومنطقه، ومن هنا تبرز أهمية تثقيف العقل وتزويده بالمعارف النافعة، وتنميته بالاطلاع على العلوم المتنوعة.

والمرأة المسلمة مكلفة كالرجل، وعليها طلب العلم الذي ينفعها في دينها ودنياها وهي إذا تقرأ قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114]، وتسمع قول الرسول الكريم ﷺ : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» [ابن ماجة، 1/ 81] تدرك أن هدي القرآن والسنّة يشمل الرجل والمرأة على حدٍّ سواء، وأنها تساوي الرجل في علوم فرض العين وعلوم فرض الكفاية، منذ وجد العلم في المجتمع الإسلامي.

ولقد أدركت المرأة المسلمة في ذلك المجتمع الرباني قيمة العلم منذ الأيام الأولى للإسلام، فقالت نساء الأنصار للرسول ﷺ : «اجعل لنا يوماً من نفسك نتعلم فيه، فقد غلبنا عنك الرجال، فقال لهن: موعدكن دار فلانة، فأتاهن فيها فوعظهن وذكرهن وعلمهن» [فتح الباري، 1/ 195].

كانت المرأة المسلمة مقبلة على طلب العلم، لا تستحي من السؤال عن أحكام دينها لأنها تسأل عن الحق، والله لا يستحي من الحق، وقد وردت

نصوص كثيرة تصور جرأة المرأة المسلمة ونضج شخصيتها ورجاحة عقلها فيما وجهت من أسئلة إلى رسول الله ﷺ المعلم العظيم، تبتغي بها التفقه في الدين.

ولم تكن المرأة في جيل الصحابة الفريد تتردد في استيضاح الحكم الشرعي من النبي المشرع ﷺ، مباشرة السؤال بنفسها عما ينزل بها، إن ارتابت في فتوى أحد من الناس، أو لم تقتنع في صحة فتواه، فكانت تتحرى الدقة في فهم المسألة حتى تصل إلى اليقين. وهذا شأن المرأة الذكية الواعية، لذا أوجب الإسلام على المرأة طلب العلم كما أوجبه على الرجل إذ قال رسول الله ﷺ : «طلب العلم فريضة على كل مسلم» [ابن ماجة، 1/81]، أي: على كل إنسان مسلم نطق بالشهادتين سواء أكان رجلاً أم امرأة، فلا غرو أن نجد المرأة المسلمة تواقة إلى العلم مقبلة عليه، مهتمة بتفهم مسائله.

والمرأة المسلمة الواعية هدي دينها في كل زمان ومكان تدرك أهمية تحليها بالعلم النافع، وأثره في شخصيتها وأولادها وأسرتها ومجتمعها فتقبل عليه بنفس راغبة مطمئنة متعطشة إلى الحصول على ما ينفعها منه في دينها ودنياها.

وأول ما ينبغي للمرأة المسلمة أن تتقنه كتاب الله تعالى: تلاوة وتجويداً وتفسيراً ثم تلم بعلوم الحديث والسيرة وأخبار الصحابيات والتابعيات من أعلام النساء، وتطلع على ما يلزمها من أبحاث الفقه، لإقامة عباداتها ومعاملاتها، ومعرفة أحكام دينها على أساس قويم.

ثم تلتفت بعد ذلك إلى اختصاصها الأول في الحياة، وهو التعهد القويم لبيتها وزوجها وأسرتها وأولادها، فهي المخلوق الذي خصصه الله ليهب بيت الزوجية والأمومة الأنس والسكينة والبهجة والبشاشة والسعادة والتنعم، وهي التي ألقى عليها الإسلام مسؤولية كبرى في تربية الأجيال، وصناعة الأبطال، وتنشئة العبقريات.

ومن هنا كثرت الأقوال في هذا العصر مجسدة أثر المرأة في نجاح الزوج والأولاد في حياتهم العملية، ولا تستطيع المرأة أن تقدم هذا كله إلا إذا كانت متفتحة العقل مستنيرة الذهن، قوية الشخصية، زكية النفس، رفيعة الخلق، ومن هنا كانت بحاجة إلى مزيد من التربية والتعليم والتسديد والتوجيه في تكوين شخصيتها المسلمة.

وليس من الحكمة أن يكون تعليمها وثقافتها كتعليم الرجل وثقافته في كل شيء، بل هناك أمور تختص بها المرأة، ولا يستطيع الرجل أن ينهض بها، وأمور يختص بها الرجل ولا تستطيع المرأة أن تنهض بها، أو هناك أمور خُلقت لها المرأة وأمور خلق لها الرجل، وكل ميسر لما خلق له.

والمرأة المسلمة تتجه إلى التعلم والاختصاص، تضع نصب عينيها هدي الإسلام العظيم في تكوينها العقلي والنفسي والاجتماعي، بحيث يؤهلها تعلّمها القيام بالمهمة الأساس التي خلقت من أجلها، بحيث تغدو شخصية واعية منتجة بناءة في أسرتها ومجتمعها وأمتها، لا نسخة مماثلة للرجل، تزاحمه في عمله، وتحتل مكانه في أوساط الرجال.

وأياً كان تخصص المرأة العلمي، فهي تحرص على إتقانه والتمكن منه، تأديته على الوجه الأكمل، عملاً بهدي الرسول الكريم ﷺ.

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» [رواه البيهقي في شعب لإيمان، 4/ 334].

79

نابغة في العلم

على أن أبواب العلم مفتحة أمام المرأة المسلمة، تلج ما تشاء منها، وتتحلى بحلية العلم الثمينة، ما دام ذلك لا يخل بأنوثتها وطبيعتها، بل يزيد عقلها تنوراً ومشاعرها إرهافاً وشخصيتها تألقاً ونمواً، وإنها لواجدة في تاريخ الأعلام من النساء المسلمات نماذج نادرة في الإقبال على العلم والعبّ من كنوزه، والتضلع فيه.

فقد كانت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها المرجع الأول في الحديث والسنّة المطهرة، والفقيهة الأولى في الإسلام وهي في ريعان الشباب لم تخط إلى التاسعة عشرة.

قال الإمام الزهري: «لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي ﷺ وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل» [الاستيعاب، 4/ 1883].

وكم من مرة فزع كبار الصحابة إليها، ليسمعوا منها القول الفصل في أصول الدين ودقائق الكتاب المبين.

ولم يكن نفاذ رأيها ورجاحة عقلها في قضايا الدين فحسب، بل كان ذلك شأنها في رواية الشعر والأدب والتاريخ والطب، وغير ذلك من العلوم المعروفة في عصرها، يشهد لذلك قول فقيه المسلمين عروة بن الزبير، إذ روى ابنه هشام قوله: «ما رأيت أحد أعلم بفقهٍ ولا بطبٍّ ولا بشعرٍ من عائشة» [الاستيعاب، 4/ 1885].

ومن الأحاديث التي طارت بها كتب الأدب عن علم عائشة الواسع «أن عائشة بنت طلحة كانت في مجلس هشام بن عبدالملك، وفيه مشايخ بني أمية،

فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا أغار إلا سمته، فقال لها هشام: أما الأول، فلا أنكر، وأما النجوم، فمن أين لك؟ قالت: أخذتها عن خالتي عائشة» [الأغاني، 10/ 57].

إذا تحدثت ملكت على الناس مسامعهم وأخذت بمجامع قلوبهم، وهذا ما دعا الأحنف بن قيس إلى القول: سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء من بعدهم. فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من في عائشة؟

لا تصرف شواغل البيت وأعباء الأمومة المرأة المسلمة عن المطالعة، ذلك أنها تدرك أن المطالعة هي المورد الذي يرفد العقل بالمعرفة ويمده بالغذاء الذي يهبه النضج والنمو والتألق.

والمرأة المسلمة التي وعت من هدي دينها أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وراحت تتعهد عقلها بالعلم والمعرفة لا يمكن أن تنقطع عن المطالعة النافعة، مهما تراكمت عليها شواغل البيت، ومهما أثقلتها أعباء الأمومة. إنها تبحث عن أوقات قليلة لتخلد فيها إلى كتاب نافع حيث تثري فكرها بالجديد وما أبدعته قرائح العلماء والأدباء والمفكرين من بحوث فكرية واجتماعية وأدبية وعلمية توسع آفاق ذهنها، وتنمي ملكة عقلها وتزداد بها علماً.

80

تلزم العبادة وتزكية النفس

تعطي المرأة المسلمة نفسها حقها من صقل الروح بالعبادة، فتقبل على عبادتها بنفس صافية هادئة مطمئنة مهيأة لتغلغل المعاني الروحية في أعماقها بعيداً عن الضجة والضوضاء والشواغل، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

فإذا صلّت أدت صلاتها في هدوء من النفس، وفي صفاء من الفكر، بحيث تتشرب نفسها معاني ما تلفظت به في صلاتها من قرآن وذكر وتسبيحات، ثم تخلو إلى نفسها قليلاً فتسبح ربها وتتلو آيات من كتابه، وتتأمل وتتدبر معاني ما يجري على لسانها من ذكر، وما يدور في جنانها من فكر، وتستعرض بين حين وآخر حالها، وما يصدر عنها من تصرفات وأفعال وأقوال محاسبة نفسها أن قربت على مخالفة، أو بدا عنها في حق الله تقصير، فبذلك تؤتي العبادة ثمرتها المرجوة في تزكية النفس وتصفية الوجدان من أدران المخالفة والمعصية وتحبط حبائل الشيطان في وسوسته المستمرة المردية للإنسان، فالمرأة المسلمة الصادقة قد تخطئ وقد تقصر وقد تزل بها القدم، ولكنها سرعان ما تنخلع من زلتها وتستغفر الله من خطئها، وتبرأ من تقصيرها، وتتوب من ذنبها وهذا شأن المسلمات التقيات الصالحات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:201].

ولهذا كان الرسول ﷺ يقول لأصحابه: «جدّدوا إيمانكم» قيل: يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا؟ قال: «أكثروا من قول لا إله إلا الله» [رواه أحمد بسند جيد، 2/ 359].

والمرأة المسلمة تستعين على تقوية روحها وتزكية نفسها بدوام العبادة والذكر والمحاسبة واستحضار خشية الله ومراقبته في أعمالها كلها فما أرضاه فعلته، وما أسخطه أقلعت عنه، وبذلك تبقى مستقيمة على الجادة لا تجور، ولا تنحرف ولا تظلم ولا تبتعد عن سواء السبل.

81

تختار الرفيقة الصالحة وتلزم مجالس الإيمان

وفي سبيل بلوغها هذا المرتقى العالي تختار الرفيقة التقية النقية الصالحة التي تخلص لها الود، وتمحضها النصح، ولا تغشها في معاملة أو حديث، فللرفيقة الصالحة أثر كبير في استقامة أمر الفتاة المسلمة، وتحليها بالعادات الحسنة والشمائل الرفيعة، فالرفيقة القرينة هي صورة مماثلة لها في أخلاقها وسجاياها.

وتحرص المرأة المسلمة على حضور المجالس التي تدور فيها الأحاديث عن الإسلام وعظمته في بناء الفرد والأسرة والمجتمع، وتتملّى فيها الحاضرات قدرة الله العظيم، ونعمه السابغات على المخلوقات، ويتعاهدن على الالتزام بأوامر الله واجتناب نواهيه أو الإقبال على طاعته، فبمثل هذه المجالس ترقى النفس، وتزكو الروح، وتخشع الجوارح ويسمو الإنسان، وتخالط قلبه بشاشة الإيمان.

لهذا كان عبدالله بن رواحة ﷺ إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: «تعال نؤمن بربنا ساعة» ويبلغ ذلك النبي ﷺ فيقول: «يرحم الله ابن رواحة، إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة» [رواه أحمد، 3/ 265].

وكان الخليفة الراشد سيدنا عمر الفاروق ﷺ ينتزع نفسه من شواغل الخلافة وأعباء الحكم، ويأخذ بيد الرجل والرجلين، فيقول: «قم بنا نزداد إيماناً فيذكرون الله عز وجل» [حياة الصحابة، 3/ 39].

إن المسلم مسؤول عن تقوية روحه وتزكية نفسه ودفعها دوماً إلى أعلى وحمايتها من الارتكاس إلى أدنى.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:7-10].

ومن هنا كانت المرأة المسلمة مطالبة بحسن اختيار الصديقات والبيئات والمجالس التي لا تزيدها إلا سمواً في روحها، وتقوى في أعمالها، وصفاءً في نفسها.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:28].

82

تكثر من ترديد الأدعية المأثورة

ومما يعين المرأة المسلمة على تقوية روحها وربط قلبها بالله عز وجل حفظها بعض الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ في كل عمل من الأعمال التي تثبت أن للرسول ﷺ فيها دعاء، فلقد أثر عنه صلوات الله عليه صيغ أدعية رائعات في كل عمل كان يقوم به، فللخروج من البيت دعاء، والدخول إلى البيت دعاء، وللشروع في الطعام دعاء والاستيقاظ من النوم دعاء، ولوداع المسافر دعاء، ولاستقباله دعاء. وهكذا لم يكد رسول الله ﷺ يقوم بعمل من الأعمال إلا وكان له دعاء، يتوجه فيه إلى الله أن يبارك له في مسعاه، ويجنبه الزلل، ويلهمه الصواب، فيكتب له الخير ويقيه من الشر وكان صلوات الله عليه يعلّم الصحابة هذه الصيغ الرائعة من الأدعية والأذكار ويحضهم على تردادها في أوقاتها.

والمرأة المسلمة الحريصة على جلاء روحها تقبل على تعلم طائفة صالحة من هذه الأوعية المأثورة تأسياً بالرسول ﷺ وصحابته الأبرار، وتواظب على تردادها في أوقاتها ومناسباتها، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وبذلك يبقى قلبها موصولاً بالله عز وجل وتزكو روحها، وترهف أحاسيسها ويزداد إيمانها.

إن المرأة المسلمة المعاصرة اليوم لفي أمسّ الحاجة إلى هذا الزاد الروحي تزوّد به روحها، وتصقل نفسها، وتنأى به عن فتن العصر وموبقاته وآفاته التي أطاحت بالمرأة في كثير من المجتمعات الشاردة عن هدي الله. والمرأة المسلمة الواعية هدي دينها تتبصر طريقها، وتكثر من الأعمال الصالحات، لتنجو من هذا المصير المخيف الذي يسعى شياطين الجن والإنس في كل زمان ومكان بإيقاع النساء فيه.

83

صلتها الدائمة مع خالقها، ذات إيمان عميق

إن أبرز ما يميز المرأة المسلمة إيمانها العميق، بالله ويقينها بأن ما يجري في هذا الكون من حوادث وما يترتب على الناس من مصائر، إنما هو بقضاء الله وقدره، وأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما على الإنسان في هذه الحياة إلا أن يسعى في طريق الخير، ويأخذ بأسباب العمل الصالح، في دينه ودنياه، متوكلاً على الله حق التوكل، مسلماً أمره لله، موقناً أنه فقير دوماً لعونه وتأييده وتسديده ورضاه.

ولقد أثمرت هذه اليقظة الإيمانية ثمرات عجيبة في حياة المسلمين والمسلمات، إذ أيقظت الضمائر وأرهفت المشاعر، ونبهت القلوب إلى أن الله تبارك وتعالى شاهد مطلّع على السرائر، وأنه مع الإنسان أينما كان، وليس أدل على يقظة الضمير واستحضار خشية الله تعالى في السر والعلانية، من قصة الفتاة المسلمة.

قال عبدالله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال: «بينما أنا مع عمر بن الخطاب ﷺ وهو يعس المدينة، إذ أعيا، فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها يا ابنتاه قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فقالت: يا أمتاه ما علمت كان عزمة أمير المؤمنين اليوم، قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر منادياً فنادى ألا يشاب اللبن بالماء، فقالت لها: يا بنية قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإنك في موضع لا يراك عمر. فقالت الصبية لأمها: ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخفاء، وعمر يسمع ذلك فقال: يا أسلم،

امض إلى الموضع فانظر من القائلة، ومن المقول لها، وهل لهم من بعل؟ قال: فأتيت الموضع، فنظرت فإذا الجارية أيم (لا زوج لها) وإذا تلك أمها، وإذا ليس لهم رجل، فأتيت عمر فأخبرته، فدعا ولده فجمعهم، قال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه، ولو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجارية، فقال عبدالله، لي زوجة، وقال عبدالرحمن: لي زوجة، وقال عاصم: لا زوجة لي فزوجني، فبعث إلى الجارية، فزوجها من عاصم، فولدت لعاصم بنتاً، وولدت البنت عمر بن عبدالعزيز» [فتح الباري، ص441-442].

إنها يقظة الضمير التي أصلها الإسلام في نفس هذه الفتاة المسلمة، وعقيدة المرأة المسلمة الداعية لا تشوبها شائبة من جهل ولا يكدّر صفاءها غبش من خرافة، ولا يطفئ تألقها شبح من وهم، إنها العقيدة القائمة على الإيمان بالله الواحد الأحد، العليّ الصمد، القادر على كل شيء بيده مقاليد الأمور، وإليه يرجع الأمر كله، ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:88-89].

وهذا الإيمان العميق الواضح يزيد شخصية المرأة المسلمة قوة ووعياً ونضجاً فإذا هي ترى الحياة على حقيقتها، دار ابتلاء واختبار، ستعرض نتائجها في يوم آتٍ لا ريب فيه.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية:26].

84

محافظة على الصلوات الخمس

لا شك أن تقبل المرأة المسلمة على عبادة ربها بهمة عالية، لأنها تعلم أنها مكلفة بالأعمال الشرعية التي فرضها الله على كل مسلم ومسلمة، ومن هنا هي تؤدي فرائض الإسلام وأركانه أداءً حسناً، لا ترخص فيه ولا تساهل ولا تفريط.

فهي تقيم الصلوات الخمس في أوقاتها، لا تلهيها عن إقامتها في مواعيدها شواغل البيت وأعباء الأمومة والزوجية، إذ الصلاة عماد الدين، من أقامها أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين، وهي أفضل الأعمال وأجلّها كما بيّن رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه عبدالله بن مسعود ﷺ، قال: سألت رسول الله ﷺ : أي الأعمال أفضل؟ قال: «الصلاة في وقتها» قلت: ثم أي: «قال: بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» [شرح السنّة، 2/ 176].

ذلك أن الصلاة هي الصلة بين العبد وربه، وهي الرحمة والرضوان، ويغسل بها أدرانه وذنوبه وخطاياه.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قال: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصولات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا» [متفق عليه شرح السنّة، 2/ 175].

فالصلاة رحمة من الله إلى عباده، يفيئون إلى ظلالها خمس مرات في اليوم، يحمدون فيها ربهم، ويسبحونه، ويستمدون منه العون، ويطلبون الرحمة والهداية

والغفران، ومن هنا كانت الصلاة طهوراً للمصلين والمصليات تمحو عنهم الخطايا، وتكفر الذنوب والزلات.

والأحاديث والأخبار عن فضل الصلاة وأهميتها وخيرها وبركتها على المصلين والمصليات كثيرة، وكلها تؤكد الخير العميم الذي يجنيه المصلون والمصليات منها كلما وقفوا بين يدي الله قانتين خاشعين.

85

تحرص على الجماعة في المسجد

لقد أعفى الإسلام المرأة من لزوم حضورها صلاة الجماعة في المسجد ولكنه في الوقت نفسه أباح لها أن تخرج إلى المسجد لحضور الجماعة، وقد خرجت فعلاً وصلّت وراء رسول الله ﷺ.

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: «لقد كان رسول الله ﷺ يصلي الفجر فيشهد معه نساء مؤمنات متلفعات في مروطهن (حجابهن) ثم يرجعن إلى بيوتهن، ما يعرفهن أحد» [فتح الباري، 1/ 482].

وكان رسول الله ﷺ يوجز في صلاته حينما يسمع بكاء طفل، تقديراً منه لانشغال أمه عليه، فيقول في الحديث المتفق على صحته: «إني لأدخل في الصلاة، وأنا أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه» [متفق عليه، شرح السنّة، 3/ 410].

لقد كانت رحمة الله كبيرة بالمرأة إذ لم يكلفها لزوم الجماعة في المسجد في الصلوات الخمس المفروضة، ولو كلفها لأرهقها من أمرها عسراً، وعجزت عن أدائها في المسجد، كما نرى كثيراً من الرجال يعجزون عن أدائها في المسجد.

86

تصوم شهر رمضان وتقوم ليله وغيرها من الأيام

والمرأة المسلمة تصوم شهر رمضان ونفسها معمورة بالإيمان، « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» [متفق عليه، شرح السنّة، 6/ 217].

وتتخلق بأخلاق الصائمات الحافظات ألسنتهن وأبصارهن وجوارحهن، عن كل مخالفة تخدش الصوم، أو تقلل من أجره، فإن تعرضت لفتنة الخصام والشحناء والصخب عملت بالهدي النبوي للصائمين والصائمات.

«إذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم» [رياض الصالحين، 570].

وتحس المرأة المسلمة الواعية في رمضان أنها تستظل بشهر لا كالشهور تضاعف فيه الأعمال الصالحات، وتفتح أبواب الخير، ويكون الصوم فيه لله، وهو الذي يجزى به، وجزاء الله الغني المنعم الوهاب أكبر وأشمل من أن يحيط به وصف.

«كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف»، قال تعالى: «إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي»، «للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك» [متفق عليه، شرح السنّة، 6/ 221].

ومن هنا كان على المرأة المسلمة أن توفق بين أعمالها المنزلية في رمضان وبين اغتنام أوقاته المباركة في الطاعة والعبادة والتقرب إلى الله بصالح الأعمال،

فلا تلهيها أعمالها المنزلية عن الصلوات المفروضة في أوقاتها وقراءة القرآن وصلاة النفل، ولا تلهيها السهرات العائلية عن قيام الليل والتهجد والدعاء، وهي تعلم ما أعدّ الله للقائمين والقائمات في رمضان من ثواب عظيم ومغفرة واسعة.

«من قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه» [متفق عليه، شرح السنّة، 4/ 116].

وتحرص المرأة المسلمة على صيام النوافل وتتقيد بآداب الصيام فيها لأن الأجر من الله عز وجل عظيم لمن صام النوافل.

87

تحج البيت وتعتمر

تضع المرأة الواعية نصب عينيها أن تحج لبيت الله الحرام متى استطاعت إليه سبيلاً، فإذا تيسرت لها أسباب السفر المشروعة إلى الحج، عكفت قبل السفر على دراسة أحكام الحج بتبصر ووعي وتمثل، حتى إذا ما أقبلت على أداء مناسك الحج صدرت في أعمالها عن فهم ووعي وحكمة، وكان حجها صحيحاً مستكملاً الشروط الشرعية، وقائماً مقام الجهاد عند الرجال كما أخبر بذلك الرسول ﷺ.

فعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: «قلت: يا رسول الله ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور، قالت عائشة: فلا أدعُ الحجَّ بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ» [فتح الباري، 4/ 72].

وكما فرض الحج على المرأة المسلمة، وجبت عليها العمرة أيضاً عند تيسر الأسباب وخصوصاً العمرة في رمضان، فإنها في ثوابها تعدل حجة مع رسول الله ﷺ كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما رجع النبي ﷺ من حجته قال لأم سنان الأنصارية: «ما منعك من الحج» قالت: «أبو فلان» (تعني زوجها) له ناضحان (جملان) حج على أحدهما والآخر يسقي الأرض لنا. قال: «فإذا كان رمضان اعتمري فيه، فإن عمرةً في رمضان حجة» وفي رواية لابن عباس: «فإن عمرةً في رمضان تقضي حجة معي» [فتح الباري، 4/ 72].

88

تحرص على اتباع ما أمر الله واجتناب نواهيه

المرأة والرجل سيان أمام الله عز وجل في اتباع أمره واجتناب نهيه، ومن هنا كانت المرأة المسلمة تأتي ما أمر الله به، وتنتهي عما نهى عنه، معتقدة أنها ستسأل عما قامت وقدمت في حياتها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

فهي وقافة عند حدود الله لا تتعداها، ولا تقع في الحرام بل تتلمس حكم الله ورسوله وتنزل عنده في كل ما يعرض لها في حياتها من شؤون.

ولا جرم أن يكون لهذه المرأة العظيمة مكانتها العالية في نفوس الصحابة الذين عاصروها وعرفوا فضلها، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ﷺ ، فقد التقت به يوماً وهو خارج من المسجد وبصحبته الجارود العبدي، فسلم عليها عمر وهو أمير المؤمنين فقالت له: يا عمر، عهدتك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ، ترعى الضأن بعصاك فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي الفوت، فقال الجارود: قد أكثرت على أمير المؤمنين أيتها المرأة. فقال عمر: دعها، أما تعرف، هذه خولة التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات، وعمر أحق والله أن يسمع لها.

تدرك مسؤوليتها الكبرى تجاه أولادها

لا يغيب عن فطنة المرأة المسلمة أن مسؤولية الأم في تربية أولادها وتكوين شخصيتهم أكبر من مسؤولية الأب، لقرب الأولاد من أمهم، ولكثرة الوقت الذي يقضونه معها، ولمعرفتها الدقيقة بكل أحوالهم وتحركاتهم في فترة النشأة والمراهقة الخطيرة في حياة الطفل العقلية والعاطفية والسلوكية.

وإنها تدرك مسؤوليتها الكاملة في تربية الأولاد التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:6]. وعبر عنها الرسول الكريم بقوله: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، فكلكم راع ومسؤول عن رعيته» [شرح السنة، 10/ 61].

إنها المسؤولية الشاملة التي طوق بها الإسلام أعناق أبناء الحياة جميعاً، فجعل الوالدين مسؤولين عن تربية أولادهما وبخاصة الأم: تربية إسلامية دقيقة، وتنشئتهم التنشئة الصالحة، القائمة على مكارم الأخلاق، التي أخبر الرسول ﷺ أنه ما بعث إلا ليتممها، وتأصيلها في حياة الناس.

«إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق» [رواه البخاري، 1/ 371].

وليس أدل على عظم مسؤولية الوالدين تجاه أبنائهما وتربيتهم التربية اللائقة بالمسلمين الأتقياء من تقرير العلماء «إن كل بيت يسمع قول الرسول

ﷺ: مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر» [رواه أحمد، 2/ 187] إن كل بيت يتردد فيه قول الرسول ﷺ هذا، لا يسارع الوالدان فيه إلى تطبيقه وتنفيذه على الوجه الأكمل وذلك بأمر الأولاد بالصلاة متى بلغوا السابعة من العمر، ولا يضربانهم على تركها متى بلغوا العاشرة، هو بيت آثم مقصر مفرط، والوالدان مسؤولان أمام الله على تقصيرهما وتفريطهما. ذلك أن البيت الذي تعيش فيه الأسرة هو المجتمع الصغير الذي تصاغ فيه نفسيات الأفراد، مستعدون لتلقي الكلمة الهادية والتوجيه السديد، ومن هنا تبدو مهمة الوالدين في الأسرة كبيرة وخطيرة في صياغة نفسيات أبنائهما وبناتهما وتسديد خطواتهم نحو الهداية وفضائل الأعمال.

لقد أدركت المرأة المسلمة مسؤوليتها في تربية أولادها على مر الأزمان وكانت بارعة في تكوين الرجال والتأثير فيهم، والنفاذ إلى قلوبهم وغرس القيم النبيلة في نفوسهم، وليس أدل على ذلك من النابهات الممتازات من النساء ربين أولاداً أنبل من أبناء النابهين من الرجال، حتى إنك لا تكاد تجد عظيماً من عظماء أمتنا، ممن عاركوا خطوب الدهر، وراضوا شماسه، وطأطأت لرجولتهم نواصي الحادثات، إلا وهو مدين بذلك لأمه العظيمة.

فالزبير بن العوام مدين بعظمته لأمة صفية بنت عبدالمطلب التي غرست فيه طباعها الغر وسجاياها الحسان.

90

تسلك في تربيتهم أنجع الأساليب مع الحب والحنان

المرأة المسلمة تتعرف على نفسيات أطفالها، وتقدّر اختلاف أمزجتهم وميولهم فتحسن التسرب في داخل تلك النفوس، والتوغل في عوالمها الصافية البريئة لتغرس فيها القيم العليا والشمائل الرفيعة والأخلاق العالية، متبعة أبرع الأساليب وأذكاها في صقل تلك النفوس.

وشخصية الأم بطبيعتها قريبة من الأولاد، محببة إليهم، جذابة لهم تنفتح لها نفوسهم وقلوبهم، فيفيضون إليها بما يعتلج فيها من مشاعر فتقبل على تسديدهم وصقل طباعهم ومشاعرهم مراعية المستوى العقلي والزمني. ملاعبة إياهم تارة وممازحة تارة أخرى، ومجاملة إياهم تارة ثالثة، ملقية في أسماعهم عبارات المحبة والعطف والحنان والإيثار، فإذا هم يزدادون لها حباً، وعلى سماع توجيهاتها وتسديداتها إقبالاً، وإذا هم يمتثلون أمرها وتوجهاتها امتثالاً نابعاً من القلب، وشتان بين الطاعة الصادقة النابعة من القلب، قائمة على الحب والاحترام والتقدير والثقة، وبين الطاعة الكاذبة القائمة على الكبت والعنف والقهر والانصياع، فالأولى طاعة دائمة وطيدة مثمرة، والثانية طاعة مؤقتة هشة عقيم، وسرعان ما تزول وتتلاشى بزوال الشدة والقهر والكبت والعنف والزجر.

ولا يخفى على فطنة الأم المسلمة أن الأولاد يحتاجون إلى الحضن الوثير الدافئ والحب العميق، والحنان الوفير الصادق، لينشؤوا نشأة نفسية صحية، خالية من الأمراض والأزمات والعقد، يعمر نفوسهم التفاؤل، وتغمر قلوبهم الثقة، وتمتلئ الأذهان بالأمل والطموح.

ومن هنا تشعر الأم المسلمة أولادها في كل مناسبة بالحب والحنان والعطف يتدفق من قبلها الكبير، فيغمر حياتهم بالبشر والسعادة، ويترع نفوسهم بالثقة والطمأنينة.

والأم المسلمة رحيمة بأولادها، إذ الرحمة خلق إسلامي أصيل، حض عليه الرسول ﷺ بأقواله وأفعاله، وكان من أبرز أخلاقه الرحمة، ولا سيما بالأولاد كما أخبرنا أنس ﷺ إذ قال: «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ قال: كان إبراهيم مسترضعاً له في عوالي المدينة، فكان ينطلق، ونحن معه، فيدخل البيت، فيأخذه فيقبله ثم يرجع» [صحيح مسلم، 15/ 75].

وتتسع رحمة الرسول الكريم ﷺ بالبراعم المسلمة المتفتحة، ويمتد رواقها الظليل فيشمل الصغار وهم يلعبون.

عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا» [رواه أحمد، 2/ 185].

ولا ريب أن العاطفة التي تحسها الأم المسلمة نحو أولادها من أكبر دواعي سعادتها في الحياة، وهذا ما فقدته المرأة الغربية التي امتصتها الحياة المادية وأنهكها عملها اليومي المستمر، ففقدت الشعور بهذا الريّ العاطفي الأسري.

91

تسوي بين أولادها وبناتها

والمرأة المسلمة الداعية تسوي بين أولادها وتعدل، فلا تفضل أحداً منهم على آخر في الأمور كلها، لما تعلم من كراهة تفضيل ولد على آخر في شرعة الإسلام، ولما يترك ذلك التفضيل من أثر سيئ في نفس الولد الذي فضّل أخوه عليه، ذلك أن الولد الذي لا يشعر بالتسوية بينه وبين أخوته وأخواته ينشأ معقداً حاقداً قلقاً، تأكل الغيرة والحقد والحسد قلبه.

وعلى النقيض من ذلك ينشأ الولد الذي يشعر بالتسوية بينه وبينهم نشأة صحية نقية بريئة من عقد النقص، بعيدة عن الحقد والحسد والضغينة والغيرة، وقد أترعت نفسه بالتفاؤل والرضا والمحبة والإيثار والتسامح، وهذا ما يريده الإسلام من الوالدين ويحضهم عليه.

روى الشيخان عن النعمان بن بشير ﷺ أن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: إني نحلت ابني هذا غلاماً كان لي، فقال رسول الله ﷺ : «أكلّ ولدك نحلته مثل هذا؟» فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ : «فأرجعه»، وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ : «أفعلت هذا بولدك كلهم؟» قال: لا. قال: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»، فرجع إلى رد تلك الصدقة، وفي رواية فقال رسول الله ﷺ : «يا بشر، ألك ولد سوى هذا؟» قال: نعم، قال: «أكلهم وهبت له مثل هذا» قال: لا. قال: «فلا تشهدني إذاً، فإنني لا أشهد على جور» ثم قال: «أيسرك أن يكونوا لك في البر سواء؟»، قال بلى، قال: «فلا إذاً» [متفق عليه، شرح السنّة، 8/ 296].

ومن هنا كانت المرأة المسلمة الحصيفة عادلة في أولادها جميعاً، لا تفضل أحداً منهم على آخر، سواء أكان ذلك في النفقة أم الهبة أم المعاملة، وبذلك تنفتح لها قلوبهم جميعاً، وتلهج ألسنتهم بالدعاء لها، وتمتلئ نفوسهم ببرها وإجلالها وإكبارها.

92

لا تفرق في حنوها ورعايتها بين البنين والبنات

والمرأة المسلمة لا تفرق في حنوها ورعايتها بين البنين والبنات، كما تفعل بعض النسوة اللاتي لم يبرأن من العقلية الجاهلية، بل تنظر إلى البنين والبنات بعين واحدة من الرحمة والعدل والرعاية والحنو، وإنها لتدرك أن الأولاد هبة من الله، وأن هبة الله من البنين والبنات نعمة لا مدافع لها ولا مغير ولا راد.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:49-50].

ولا يغيب عن فطنة المرأة المسلمة المستنير بهدي دينها الثواب العظيم الذين أعده الله لمن تربي البنات وتحسن تربيتهن، كما جاء في عدد من الأحاديث الصحيحة ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «جاءتني امرأة ومعها ابنتان لها، فسألتني فلم تجد عندي شيئاً غير ثمرة واحدة فأعطيتها إياها، فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئاً، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل علي النبي ﷺ ، فحدثته حديثها فقال النبي ﷺ : من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن، كن ستراً من النار» [متفق عليه، شرح السنة، 6/ 187]. وتتسع رحمة الرسول الكريم بالإناث، فتشمل إلى جانب البنات الأخوات، وذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري في الأدب المفرد، عن أبي سعيد الخدري أن الرسول ﷺ ، قال: «لا يكون لأحد ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، فتحسن إليهن، إلا دخل الجنة» [أخرجه البخاري، 1/ 162].

93

تحسن اختيار زوجة ولدها «كنتها»

تنظر المرأة المسلمة الواعية المتحلية بالخلق الرفيع إلى زوجة ابنها (كنتها) نظرتها إلى ابنة من بناتها، ساقتها الأقدار لتكون زوجة لابنها، وفدت إلى الأسرة وأصبحت فرداً من أفرادها، كما تنظر الفتاة المسلمة المنشأة على قيم الإسلام وأخلاقه إلى حماتها نظرتها إلى أمها، بعد أن فارقت ديار والديها إلى دار الزوجية الجديدة، ولذلك تحرص كل منها قبل الزواج على حسن الاختيار، وتتحرى فيمن تقبل على مصاهرتهن الدين والخلق والتربية القويمة والسمعة الحسنة.

إن المرأة المسلمة إذ تخطب لابنها، وتفتش عن الفتاة اللائقة به تضع في حسابها دوماً أنها ستضم إلى أسرتها بنتاً جديدة إلى بناتها، لها ما لهن من إعزاز وتقدير وود، وعليها ما عليهن من واجبات ينهضن بها في محيط الأسرة الكبير، وتريد لكنتها المقبلة في حياتها الزوجية إلا النجاح والسعادة والاستقرار، ولذلك لا يستهويها في الفتيات المخطوبات المظاهر الخلابة، من جمال وخفة روح وجاذبية، بل تتطلب إلى جانب ذلك كله وقبله الدين القويم، والخلق الحسن، والشخصية المتزنة المستهدية في ذلك كله بهدي الرسول ﷺ القائل: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك» [متفق عليه، شرح السنّة، 9/ 8].

94
تقدر حقيقة وجود الكنة في بيت الزوجية

من هذه النظرة الراشدة للكنة ووجودها في بيت الزوجية، ومن هذا التصور الحكيم لمكانة الكنة بين أفراد الأسرة الجديدة التي ستفد إليها الكنة تنبثق المعاملة الحسنة من الحماة المسلمة لكنتها، ويسود العدل، ويغلب الإنصاف في المواقف والتصرفات والأعمال وردود الأفعال.

لا يخطر على بال الحماة المسلمة المتشبعة بأدب الإسلام وقيمه أن كنتها خطفت منها ابنها الذي ربته سنين طويلة، وأنفقت في تربيته والسهر عليه بياض أيامها وسواد لياليها، حتى إذا ما بلغ أشده واستوى رجلاً قادراً على العطاء والبذل والتضحية، أخذت الزوجة بيده إلى عش الزوجية السعيد، حيث ينسى في جوه الوريف العطر أمّه وما أنفقت وما قدمت في تربيته وإعداده من جهود، لا يخطر هذا الخاطر الشيطاني للمرأة المسلمة الصالحة على بال، لأنها تدرك سنّة الله في هذه الحياة، وتعلم أن ابنها الذي غذته بلبان الإسلام منذ نعومة أظفاره لا يمكن أن تنسيه الزوجة الحسناء أمه، كما لا يمكن لكنتها التي تخيرتها من الفتيات المؤمنات الطيبات أن ترضى لزوجها هذا النسيان الذي هو العقوق بعينه وقد حرمه الإسلام.

وإذا ما ساور الحماة شعور بالغيرة من كنتها في لحظة من لحظات الضعف البشري لاذت بدينها وتقواها وورعها، فانخلعت من هذا الشعور البغيض وارتدت إلى صحوة إيمانها وتقواها، وإلى نظراتها السديدة لِكَنَّتها، وهذا شأن الأتقياء من المؤمنين المؤمنات إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون الحقيقة الناصعة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف:201].

ومن هنا يقوم التوازن في حياة الأسرة بين الكنّة والحماة والزوج، وتسير الأمور في مجراها الطبيعي الهادئ الذي لا تتحكم فيه الأهواء والعواطف والشهوات والضلالات، بل يتحكم فيه الدين والعقل والحكمة والرشاد.

95

تنصح ولا تتدخل في الخصوصيات

إن المرأة المسلمة لتضع في حسابها عند اللحظة الأولى التي تزف فيها كنتها إلى ابنها أن لكنتها الحق في أن تعيش حياتها الزوجية بكل أبعادها ومعانيها، ما دامت في نطاق الحلال، وفي الحدود المشروعة المباحة، وليس لأحد أن يتدخل في الخصوصيات بين الزوجين، إلا ما دعت إليه الحاجة والضرورة، على سبيل النصيحة المطلوبة من كل مسلم عمل بقول الرسول ﷺ «الدين النصيحة» [صحيح مسلم، 2/ 37].

وضابط هذا السلوك الحكيم عند الحماة المسلمة، صنيعها مع ابنتها فكما أنها تريد لابنتها أن تعيش حياتها الزوجية بكل جوانبها هانئة سعيدة مستقلة راضية، لا ينغص عيشها تدخّل مزعج في خصوصياتها، كذلك تريد لكنتها ما تريد لابنها من غير استثناء.

96

تبر كنتها وتحسن معاملتها

والحماة المسلمة تبر كنتها وتكرمها وتحسن معاملتها وتشعرها بحبها وتقديرها، وتستمع إلى ما تبدي من آراء فتقر الصائب منها، وتشيد به وتشجع عليه، وتتلطف في رد الخاطئ وتصحيحه، ورائدها في ذلك كله الإنصاف والعدل والإحسان، والحكم بما تحكم به على ابنتها لو كانت في مكان كنتها، وأبدت أمها الرأي فيه، مستهدية بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب:70].

ولا يفوتها أن تعبر عن هذه السعادة تغمر نفسها بين الحين والآخر، إذ ترى ابنها سعيداً مع زوجته، مضفيةً بذلك على نفس ابنها وكنتها أجمل المشاعر وأنبل الأحاسيس، كما لا يفوتها أن تحسب حساب كنتها في المناسبات كما تفعل مع بناتها، فتصحبها معهن، وتشعرها أنها واحدة منهن، بل هي فرد حبيب من أفراد الأسرة منذ دخلت عش الزوجية واقترنت بابنها الحبيب.

بذلك تكون الحماة محببة إلى كنتها، لأنها أثبتت أن كنتها حبيبة إلى نفسها على النقيض مما نرى في المجتمعات الجاهلية المتخلفة الشاردة عن هدي الله من بغضاء وكيد وشحناء بين الحماة وكنتها، حتى صارت تلك العداوة ظاهرة تقليدية حتمية صيغت فيها أمثال، وغنيت فيها أغان، وكأن العداوة بين الكنّة وحماتها عداوة تقليدية، لهذا تلاشت تلك العداوة التقليدية بين الحماة وكنتها في الأوساط والبيئات الإسلامية الواعية المستمسكة بهدي دينها، الملتزمة بأحكامه وقيمه.

97

حكيمة عادلة في حكمها على كنتها

قد تبتلى الحماة بكنة على غير خلق حسن، بل قد تكون متصفة بشيء من الفظاظة وسوء المعاملة، وهنا تبرز الحاجة إلى حكمة الحماة وحنكتها بالدفع بالتي هي أحسن عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:34-35].

ومن الدفع بالتي هي أحسن أن تزوي الحماة عن ابنها سلبيات كنتها وأخطاءها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وتنصحها على انفراد، مبينة لها حرصها على بقاء بيتها معموراً بالخير والود والعمل الصالح، وتستمر في نصحها حتى تتخلص من تلك السلبيات أو تخفف منها، وبذلك تحس الكنة أن حماتها صديقة حميمة محبة، وليست عدواً لدوداً متربصاً بها الدوائر.

وتلتزم الحماة المسلمة الحكيمة العدل في حكمها على كنتها وابنها إذا رأت تجنياً من ابنها على كنتها، ذلك أن لها من تقواها وورعها ما يعصمها من الوقوف إلى جانب ابنها والتحيز له على حساب الحق، فلا تحابيه على ظلم، ولا تمالئه على باطل، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:152].

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:58].

والمرأة المسلمة الواعية لا تقع في إثم الجور، ولا ترضى في حكمها إلا بالعدل ولو كان الحكم لكنتها على ابنها الحبيب.

تحسن اختيار أصهارها وتكرمهم وتبرهم

ولا تختلف نظرة الحماة المسلمة المستنيرة بهدي دينها إلى أصهارها عن نظرتها إلى كناتها، فكما أنها تنظر إلى كنتها نظرتها إلى ابنتها، تنظر إلى صهرها نظرتها إلى ابنها، كما أنها تريد لابنها أن يكون أحسن الناس، تريد أن يكون صهرها من أحسن الناس. ولذلك تحسن اختياره لابنتها، فلا ترضاه إلا من أصحاب الدين والخلق والسمعة العطرة، كما حض على ذلك الرسول ﷺ بقوله: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» [رواه الترمذي، 2/ 274].

ولا يستهويها في خطيب ابنتها المظهر الأنيق أو المركز الرفيع أو المال الغزير فحسب، لأنها تدرك أنها ستضم بتزويجه ابنتها ولداً إلى أولادها، تستأمنه على عرض ابنتها وحياتها وسعادتها، ولا يصون هذا كله ولا يرعاه إلا رجل ذو خلق ودين وشرف وقيم.

فلا شك أن يكون صهرها موضع إكرامها وبرّها وتقديرها، تشعره في كل مناسبة أنه أصبح فرداً من أفراد الأسرة منذ اقترانه بابنتها، تود له ولابنتها السعادة والتوفيق في دربهما الطويل، وأنه العزيز المؤتمن على العرض الغالي، والمؤمل لتحقيق ما تصبو إليه ابنتها من آمال غزيرة وأمنيات كبار، كما تشعره أنها أم ثانية له لا تضن عليه بنصح ولا تألو جهداً في توفير أسباب السعادة له ولزوجه وأولاده. إنها تزور ابنتها بكل نافع لها في شؤون بيتها وزوجها وأولادها، فهي تفتح عيني ابنتها دوماً على ما يسر زوجها ويسعده، وتشجيعها على القيام بواجباتها الزوجية والأسرية على أحسن وجه.

وإن رأت من ابنتها تقصيراً أو تراخٍ سارعت إلى نصحها وتسديدها ومساعدتها لتلافي ذلك التقصير، بحيث لا تترك لصهرها على ابنتها مأخذاً يهون من شأنها أو يصغرها في عينه ولا تنسى أن تنوه بين الحين والآخر بمزايا وإيجابيات صهرها وترددها على مسامع ابنتها لتزيدها التصاقاً به، وحباً له ورضا بما قسمه الله لها. وبذلك تكون خير معوان لابنتها على تماسك حياتها الزوجية واستمرارها وإشاعة السعادة في أجوائها.

99

تصل الأرحام والأقارب

لا يغيب عن المرأة المسلمة أن لرحمها عليها حقاً، وأنها مطالبة بصلتهم وبرّهم والإحسان إليهم، والأرحام هم الأقارب الذين يرتبطون مع الإنسان بنسب سواء أكانوا ممن يرثونه أم ممن لا يرثونه.

لقد حفي الإسلام بالرحم حفاوة فريدة ما عرفتها الإنسانية في غيره من الشرائع والفلسفات، فأوصى بها، ورغب في صلتها، وشدد النكير على من تنكر لها وقطعها.

وتتجلى حفاوة الإسلام البالغة بالرحم في تلك الصورة الرائعة التي رسمها رسول الله ﷺ للرحم تقوم بين يدي الله في الساحة الكبيرة التي خلق الله فيها الخلق فتستعيذ به من قطيعتها، ويجيبها المولى عز وجل إلى سؤلها فيصل من وصلها ويقطع من قطعها وذلك في الحديث الصحيح المتفق عليه الذي رواه أبو هريرة ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك» ثم قال رسول الله ﷺ : اقرؤوا إن شئتم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد:23].

وتوالت آيات القرآن الكريم، تؤكد منزلة الرحم في الإسلام، وتحض على الإحسان إليها، وتحذر من الإساءة إليها، بخدشها أو مسها بأذى.

ولكي يبقى ذكر الأرحام حباً في شعور المسلم أمر الله تعالى في كثير من الآيات بصلتها وبرها والإحسان إليها بعد الإيمان والإحسان بالوالدين.

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء:26].

لقد جاءت صلة الرحم في عداد المعالم الكبرى لهذا الدين الحنيف من توحيد الله، وإقامة الصلاة، وتمسك بالصدق والعفاف، ومن هنا كانت صلة الرحم من أبرز مميزات هذا الدين التي عرضها أبو سفيان على أسماع هرقل الذي سأل عن الإسلام لأول مرة مستفهماً ما جاء به.

وفي حديث عمرو بن عبسة الطويل المشتمل على جملة قواعد الإسلام وآدابه قال فيه: «دخلت على النبي ﷺ بمكة، يعني في أول النبوة فقلت له: ما أنت؟ قال: نبي. فقلت: وما «نبي» قال: أرسلني الله، فقلت: بأي شيء أرسلك؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء» [صحيح مسلم، 6/ 115].

إن المرأة المسلمة الواعية لتدرك أن صلة المرأة رحمها تكون بركة عليها في رزقها وعمرها، ورحمة عليها من الله تتغشاها في دنياها وأخراها، ومجلبة لمحبة الناس لها والثناء عليها، وبالمقابل قطيعتها رحمها شؤماً عليها وبلاء ومقتاً لها من الله والناس، وبُعداً لها عن الجنة في دار القرار، وحسبها أن تسمع قول الرسول ﷺ : «لا يدخل الجنة قاطع رحم». وحسبها أن تعلم أن رحمة الله تحتجب عن قاطع الرحم فلا تتنزل عليه بل لا تتنزل على قوم فيهم قاطع رحم، كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري «إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم».

100

محسنة ودود لجيرانها

من خلائق المرأة المسلمة الواعية هدي دينها والمتمسكة بعروته الوثقى الإحسان إلى جيرانها والبر بهم والاهتمام بأمرهم.

فهي تعي هدي الإسلام في حضّه الجار وتوصيته الشديدة بالجار حتى إنه أحله مكانه ما عرفتها الإنسانية في سلم العلاقات البشرية إلا في هذا الدين الإنساني السمح المعطاء.

لقد جاء أمر الله تعالى في محكم كتابه صريحاً حاثاً بالإحسان إلى الجار.
﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ ﴾ [النساء: 36].

وكان رسول الله ﷺ يستجيش مشاعر الصحابة أحياناً في الحض على العمل الصالح، فيصدر موعظته بقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليفعل كذا وليفعل كذا» ويكرر هذه العبارة المثيرة أمراً بمعروف، أو حاضاً على مكرمة من المكارم، ومن الأحاديث التي سلك فيها هذا الأسلوب المؤثر قوله.

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليسكت» [متفق عليه، رياض الصالحين، 185].

فقد أوصى الإسلام بالإحسان إلى الجار في صدر الحديث الشريف وجعل الإحسان علامة من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر، وثمرة يانعة من ثمراته الحسان.

هل أنت من أصحاب هذه الصفات؟ قوّم نفسك

(100 فكرة عملية تضمن لك الجنة)

1- كف الشر عن الناس.
2- التبسم في الوجوه.
3- الأمر بالمعروف.
4- النهي عن المنكر.
5- إرشاد الضال.
6- إماطة الأذى.
7- تسمع الأصم.
8- تهدي الأعمى.
9- تدل المستدل.
10- تسعى مع اللهفان.
11- تساعد الضعيف.
12- إصلاح ذات البين.
13- النفقة على الأولاد.
14- الكلمة الطيبة.
15- التحميد.
16- التسبيح.
17- التكبير.
18- حب الزوجين.
19- صوم رمضان.
20- صوم السنن.
21- العدل بين اثنين.
22- رد السلام.
23- إفشاء السلام.
24- تشميت العاطس.
25- عيادة المريض.
26- اتباع الجنائز
27- إجابة الدعوة.
28- التواجد بين الناس.
29- المشي إلى المساجد.
30- إنظار المعسر.
31- الصلاة في وقتها.
32- إعانة الرجل على حمل متاعه.
33- الوجه الطلق.
34- أداء الأمانة.
35- الوفاء بالعهد.
36- الصبر على الأذى.
37- أن تعفو عمن ظلمك.
38- نصرة المظلوم.
39- التبشير والتهنئة.
40- المجالس القرآنية.

41- صلاة الجماعة.
42- صلاة الضحى.
43- سماحة التقاضي.
44- تعليم الحكمة.
45- الدعاء بظهر الغيب.
46- رجل في حياتك الخاصة.
47- استقبال الزائرين من الشباب.
48- حفظ اللسان.
49- النصيحة الجليلة.
50- توسيع المجلس.
51- الترحيب بالقادم.
52- الإقبال على المتحدث.
53- إدخال السرور.
54- تؤنس الوحشة.
55- تأمين الناس وعدم تخويفهم.
56- احترام الناس.
57- الهدية.
58- القالة بين الناس.
59- لا تنقل الكلام.
60- صاحب الوجه الواحد.
61- لا تلعن أحداً.
62- لا تسب إنساناً.
63- لا تتبع العورات.
64- لا تظهر الشماتة.
65- لا تغش ولا تخادع.
66- لا تغدر.
67- لا تعذب أحداً.
68- غض البصر.
69- حسن الكلام.
70- أدب التحدث سراً.
71- أدب الاستعارة.
72- أدب حسن الجوار.
73- الحج والعمرة
74- لا تحقرن معروفاً.
75- مساعدة الأخ.
76- إبرار القسم.
77- نشر العلم وطلبه.
78- بر الوالدين.
79- صلة الرحم.
80- إكرام الضيف.
81- الإحسان إلى الحيوان.
82- الزكاة في موعدها.
83- العطف على المسكين.
84- سلامة الصدر.
85- كفالة اليتيم.
86- رعاية الفقراء والأرامل.

87- التزاور في الله.
88- الحب.
89- المكافأة.
90- تعين صانعاً.
91- النظام.
92- الأناقة والتجميل.
93- الحرص على الوقت.
94- تنفيس الكربة.
95- المواساة.
96- حسن الظن بالآخرين.
97- الإتقان.
98- الكسب الحلال.
99- التفاؤل والأمل.
100- المبادرة.

كم تفعل من هذه ابتغاء وجه الله وحده لا شريك له. قوّم نفسك ثم عدّل إن كان هناك شائبة، علّك بإذن الله تحظى بالجنة بمشيئته الله.

المصادر والمراجع

1- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1412هـ.

2- أحكام النساء لابن الجوزي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1405هـ.

3- (الأدب المفرد)، فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد للبخاري.

4- الأذكار للنووي، دار القبلة، جدة 1412هـ.

5- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبدالبر، دار النهضة مصر، بدون تاريخ.

6- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير الجزري، مصر، بدون تاريخ.

7- الإصابة في تميز الصحابة، دار نهضة مصر، بدون تاريخ.

8- الأغاني، لأبي فرج الأصفهاني، المصورة عن دار الكتب بمصر، بدون تاريخ.

9- أنساب الأشراف للبلاذري، دار المعارف بمصر، بدون تاريخ.

10- البداية والنهاية لابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

11- تاريخ الإسلام للذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م.

12- تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية بيروت.

13- تحفة الفقهاء لعلاء الدين السمرقندي، دار إحياء التراث الإسلامي بقطر، بدون تاريخ.

14- تراجم سيدات بيت النبوة، بنت الشاطئ، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.
15- الترغيب والترهيب للمنذري، قطر، بدون تاريخ.
16- جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
17- حياة الصحابة للكاندهلوي، دار القلم، 1983م.
18- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، بيروت، بدون تاريخ.
19- سنن أبي داود، مطبعة السعادة، مصر، 1368هـ.
20- سنن ابن ماجة، دار إحياء الكتب العربية، مصر، بدون تاريخ.
21- سنن الترمذي، وهو الجامع الصحيح، بيروت، دار الفكر، بدون تاريخ.
22- سنن النسائي، دائر البشائر، بيروت، 1986م.
23- سير أعلام النبلاء للذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981م.
24- شرح السنّة للبغوي، المكتب الإسلامي، 1970م.
25- الشمائل المحمدية للترمذي، دار الحديث، بيروت، 1985م.
26- صحيح مسلم بشرح النووي، دار الفكر، بيروت، 1981م.
27- صفوة الصفوة لابن الجوزي، دار الوعي، حلب، 1969م.
28- الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار بيروت، 1978م.
29- عشرة النساء للنسائي، مكتبة السنّة، مصر، 1988م.
30- العقد الفريد، لابن عبد ربه، دار الكتاب العربي، بيروت، 1974.
31- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر، دار المعرفة، بدون تاريخ.
32- فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد للبخاري، فضل الله الجيلاني، المكتبة السلفية، 1988م.
33- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت 1967م.

34- مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، 1982م.
35- المرأة بين الفقه والقانون، مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، 1404هـ.
36- المرأة في الإسلام، معروف الدواليبي، دار النفائس، 1409هـ.
37- مسند الإمام أحمد بن حنبل دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
38- الموطأ للإمام مالك، دار إحياء الكتب العربية، مصر، بدون تاريخ.
39- فتاوى النساء، ابن تيمية، دار المنار، القاهرة، بدون تاريخ.
40- عيون الحكمة، أمين الحوامدة، لا بلد، بدون تاريخ.

فهرس

شخصية المرأة المسلمة

100
خصلة لتكوين شخصية متميزة



